هاني الراهب

خضراء كالعلقم

سمسمة وقصص أخرى



خضراء كالعلقم



هاني الراهب

خضراء كالعلقم

سمسمة وقصص أخرى



د. هاني الراهب
خضراء كالعلقم: سمسمة وقصص أخرى
الطبعة الاولى ٢٠٠٠

دار الكنوز الادبية
ص. ب / ٧٢٢٦ ــ ١١
هاتف / فاكس ٧٣٩٦٩٦ ــ ٠١
بيروت ــ لبنان

الإهــداء

إلى يـافـا

الأمل الآتي.

هاني

القسم الأول:



الأفيون الآخر يؤدي إلى موت عامل متجول

يوم رآها أول مرة أحس أنـــها تنتصب وسط غيمة شاسعة مـــن الضباب. أحسن أن الشارع والبنايات والأشجار قد فرغت كلها مـــن قوامها وصارت سديماً، أنـــها وحدها تنتصب هناك: مادة وشكلاً ولوناً وملمساً.

كل شيء فيها حقيقي ومحسوس. عيناها تنظران بلا تعيين. فستانـــها ينسدل على قامتها المعافاة، ويلامس قدميها. فستان أخضر ربطت خصره بزنار نحيل، وهذا هو كل ما فيه.

لم يكن شعوراً وحسب. فشمس الظهيرة في ذلك الشتاء، والمكـــان المقفر إلا قليلاً، الأشجار التي مدت أغصانـــها العارية نور السماء- وهي هناك، تنتصب هادئة الخطا داخل فستانـــها الأخضر، نظراها تدفدف لا على التعيين: ذلك كله استل من نفسه وعياً وجدراناً ومسافات، جعلـــه يحس بالخطر من غيب مقبل إليه، غيب يحمل نشوة وتهديداً. وفيما بعـــد عرف أن الضباب الذي انتشر في المكان إنما نتّته النشـــوة، وأن وقوفـــه الأبكم الحائر على الرصيف الثاني كان رازحاً تحت إحساس قاس بالضآلة والخوف. وكان هو على وشك أن يطير فرحاً؛ وكان يحـــس بفقـــدان الأمن.

ذلك كان منذ زمن بعيد، آن يسدل الشباب غلالة ضبابية على الزمن فلا تراه العين. أو تراه فتحسب أنه متمدد إلى ما لا نـــهاية، وأن الأمور يمكن أن تحل في اليوم التالي أو اليوم الذي يليه. أما الآن فهو ذاهب ليقتل.

عندما رآها للمرة الثانية، أحس بوعي جديد. في المرة الأولى خطفـه شعور بالولادة، بأنه من هذا الضباب يخرج كائناً وإنساناً. بل ربما من ذا الرداء السندسي. لم يعرف. عرف فقط تلك الصبوة الجارفة التي رفعته عن الأرض، كأن رحماً يتفتح ويخرجه من أعماقه.

في المرة الثانية، كان الأمر مختلفاً. كانت واقفة عند طرف البحـــر. الهواء يحمل شعرها إلى الخلف، ويلصق فستانـــها بفخذيها وبطنيها فيرغم العين على أن تراه شفافاً. هذه المرة رأى محياها: ملوح بالشمس كحفنـة قمح، منبسط الوجه كالسهول، مرتفع الخد كرابية غضارية، وشـــفتاها منفرجتان كجدولين التقيا منبعاً ومصباً وافترقا طريقاً.

أما الآن فهو ذاهب ليقتل. في الشارع الأدهم، والناس يلتقطـــون أقدامهم ببطء وصبواتهم على عجل، يخفي تحت إبطه خنجراً غجرياً قديماً، ويمشي. لقد انتهى كل شيء. الآن يجب أن يقتل. لم يعد ثمة طريق آخر. هذا الأفيون يوصل إلى هذا الطريق.

ثم تحركت. فتحرك. تبعها. كان قد حدس بأن بيتـــها هنـــاك، في الضاحية العالية من البلدة، حيث البيوت تتلامح من بين الأشجار العظيمة الوارفة. الى واحد منـــها توجهت. سارت كمن تعرف الدرب تمامـــاً، متأكدة من أنـــها ستصل إلى القصر. غير أن خطواتها لم تكن فرحة، هي الطفلة نفساً، المرأة جسداً. لم تقفز حتى و لم تستعجل الإياب. سارت كما تسير جدته بين حواري القرية: مع كل خطوة نظرة لا على التعيـــين إلى مكان ما. وعندما اقترب من القصر، شاهد فوهات البنادق، والحـــرس، والكلاب الضخمة.

كان ذلك منذ عهد بعيد. صحيح أنه أحب والديه وأهله وأصدقائه. لكن حبه لها كان نوعاً آخر:

لا شعوراً يبادل أو حاجة تلبي– فهو لم يخطر له أن يمتلكها – بـل ارتباطاً يمنحه الأمن والفرح، القوة والحركة. أحبـها كما يحب الشـجر التراب، مثل صباح شتوي يسرح عبر الحقول، أو جدول زيت يتدفق من معصرة زيتون. وساعة لقياها، كان الضباب القديم ينـزاح، فيتجلى قوام الوجود وشكله.

وهو الآن ذاهب إلى بؤرة العفن. سـيفقؤها. وإلا فـإن جسـده سيتسمم. كل هذا العمر وهو يركض وراءها، نتفة نتفة. كان يتنـاول الخبز، لا ليشبع، بل ليشعر بعد قليل بالحاجة إلى الخبز. لم ينم يوماً متأكداً من أنه في اليوم التالي سيجد طعاماً يكفيه. وقد تعب الآن: كهل دخـل عتبة الخمسين ولم يعد يستطيع أن يركض.

لم تكن متكبرة. ولم تتكلم. كانت تجيء إليه في الحقل وكأنـها تعرف. تحييه بنظرة ثابتة، وابتسامة تلكأت حتى صارت كالوهم. تنتقـل معه أنى انتقل: إلى الزرع المتلاطم، الأشجار المتبرعمة، أدغال الـوادي، وأخيراً إلى النبع. هناك كانا يجلسان، بلا كلام في البداية، وبكلمات قليلة فيما بعد. ومرة تجرأ، إذ قالت عيناها أنـها عطشى، فسقاها حفنة مـاء من يديه.

صارت تنتقل معه في الفصول، في الريح والأوراق، الثمار، الجـدول المتبدل نحولاً واتساعاً، بين أكوام الحصيد والبيادر، وسـلال الزيتـون والبرتقال، ومساطح التين.

ومر عامان.

بين الحين والحين، يشد بزنده على إبطه. خوف أحمق من أن يسقط الخنجر فجأة، يدفعه إلى أن يشد بزنده على إبطه. لقد أحكم ربطه جيداً حول الأضلاع والعنق. لكن الجموع العابرة تشد أعصابه.

شيء ما في تحركها الغافل يزيح المكبس عن اشمئزازه مـن القتـل، فيخشى أن ينسى أنه ذاهب ليقتل. قالت أن حبهما انتهاك للمحرمـات وأن عليه أن يقاتل. قالت أنـها رغم ثروة عائلتها، لن تأتيه بغير هـذا

الفستان. لأنــها في الحقيقة ليست ابنتهم الشرعية. لقد ولدت سفاحاً لأم خادمة وأب مغامر طردوه من العائلة وبعدها قتلوه. ثم ابتسمت وقالت أنه لا يملك سوى عقله وساعديه. وحتى عندئذ سيعيشان في خطر. لأن الحب ممنوع، وجسدها أغلى ثمناً من أن يمنح لقاء عاطفة، وأن عائلتها لا تشمئز من سفك الدماء. ثم ذكرت أسماء كبيرة، أصحابــها كلهم يريدونــها: التاجر والبيك وصاحب السيادة والشيخ؛ أبناء العمومة والخؤولة، ولــن يعتبر نفسه أجدر بــها. حتى السواح الأجانب أخذوا يبتاعون المنــازل ويقيمون قرب قصرها، أو الأرض ويشيدون عليها قصوراً.

قال أنه سيقاتل، إن فستانــها يكفي لأنه يضم الثروة الأجمل الــتي تتجدد كل عام. قال أنهما مرتبطان كتوأمين، والبحر يشهد والبيــارات، وأراضي القمح والزيتون. لكن العائق الوحيد هو الخبز. عليهما أن ينتظرا الآن. مهنة الفلاحة لا تُخبز فيها. أمه وأخوته وأخواته، أنصاف جـلئعين، أنصاف عراة. كل مساء ينحشرون في غرفة طينية رطبة، وينامون علــى حصير خلق. كيف سيعيش أطفال جدد يأتون من صلبيهما؟ قال أنــــه سيبحث عن عمل أجدى، في المدينة أو في مكان آخر، ويــترك شــغل الأرض لأخيه. وعندما يستقر، يأمن للبيت والخبز، سيقاتل. سيخطفها إلى المكان الآمن ويقاتل.

آنذاك ابتسمت. نظرت إلى المدى. كلا الابتسام والنظرة كانا بــلا تعيين. وهو ابتسم. نظر إليها، وكان خائفاً. هذه الأسطورة التي أمامــه، كيف سيحميها من عدوان عشاق الأساطير؟ ثم سارت. أشارت لــه ألا يتبعها. سارت بحذاء النبع. انعطفت مع انعطافه. اختفت بين الأجــلم. وبانت. واختفت. وكان كل مكان تتركه يبدو لعينيه مرشوشاً بالضباب. ثم غابت.

بعدئذ لم تأت للقائه. أبناء العم والخال ضربوا حولهــا حصــاراً. وساعدهم السواح المقيمون. هؤلاء سدوا عليه المنافذ. هددوه بالطرد من الأرض. تربصوا له بالعصي والخناجر والطلقات.

والخنجر ثابت تحت إبطه. يترك شارعاً ويمتد في آخر. من أين هؤلاء البشر كلهم؟ أم مثله تاهوا ويتيهون وراء الأفيون؟ ربما. غير أنه الآن يتقدم ليقتل. خطواته هادئة. عيناه تتفحصان الناس كأنهما ترياهم لأول مرة وتودعان، في الوقت نفسه. في ذهنه أن يدخل مكتبه بهدوء، يتجه إليه وراء الطاولة بلا كلام، ويطعنه عند عظم الترقوة. قد يشعل النار. وقد لا يشعلها. ليس متأكداً بعد. لكنه سيطلب منه أن ينظر إلى اليد التي جففتها السنين وأتعبها التيه، قبل أن تهوي على عنقه، عند عظم الترقوة.

يومها كان شاباً. وراح يسأل عن عمل ثابت اللقمة والمأوى، لا تهديد فيه. يهيء للمستقبل. وفي زحمة البحث الخائب، سمع أن سائحاً مقيماً قد اغتصبها. لم تصله تفاصيل كثيرة، لكنه سمع النبأ كثيراً. في البداية صعق. ليس لأجل البكارة، وإنما للظلم. ثم هام على وجهه أيامك يلطم الزرع والشجر، يقذف التراب بوجه الهواء، يرمي الحجارة في النبع شاهد الفلاحين يغدون إلى الأرض مع الفجر، ويعودون في العشيات. لكل منهم ذلك الوجه الرضي المستكين والخطوات الثقيلة الوادعة. بعضهم يحمل النير في طريقه الأبدي إلى الفلاحة. بعضهم يمشي وراء الدواب. وهناك في الحقل، يشدون قبضاتهم على شيء ما: المحراث، المنجل، الفأس، الأكياس، القرب.

ثم نب فيه شعور بالتشفي، لئيم لكنه مريح. الآن سيضطر أبناء العم والخال والأسماء الكبيرة إلى القتال، دفاعاً عن شرفهم. وسيصطدم عدواه: العائلة الثرية والسواح المقيمون.

لكن شيئاً من هذا لم يحدث. فبينما انهارت جهوده فشلاً بعد فشل، ترامت إلى مسمعه أخبار غامضة عن تعويضات مالية، ودعوة كريمة، وعرض بالزواج. وعلم أن التعويضات قبلت، وأن الدعوة والعرض رفضا.

مرة أخرى نبَّ فيه شعور شرير، ورأى أن فرصته حانت. لقد فقدت بكارتها، ولن يقبل أحد منهم زواجها. وهكذا ذهب إليهم.

على الطريق حاولت سيارة أجنبية دهسه. انتفض ودخل أحد الدكاكين.

من نافذة عاتمة انهمر عليه الرصاص. انعطف في أحد الزواريب، واختفى.

عندما اخترق الضاحية هاجمته ثلة من القبضايات. فر. لم يستطيعوا اللحاق به.

مضى في دروب لولبية، ووصل إلى السور الحديدي. لم يدر من أي قصر أو منزل جاءه الرصاص ونباح الكلاب. وجد نفسه محاصراً بالشرفات المدججة.

أحدهم ركب حصاناً وهمزه إلى البيت الطيني في جانب القرية. ركل الباب بقدمه، وسأل المرأة التي أقبلت تحييه، أين ابنها. جاء إليه عند النبع. تفرس في وجهه المشرئب مثل من أعجزه الغضب عن الكلام.

أخيراً قال:

تعرف أني أستطيع قتلك مثل كلب. اترك هذه الأرض. وابتعد عن زهرة. زهرة ليست لك.

ومنذ ذلك الحين بدأت المطاردة. راكب الحصان طرده من البلدة أيضاً. القبضايات لاحقوه. اثنان انهالا عليه بالعصا. عصبة تركته مغمى عليه عند التنور. وذات ليل اقترب من القصر فرأى الفوهات تنتظر وراء قضبان السور الحديدية العالية.

زمان طويل مضى . كان بوسعه أن يقتل قبل هذا اليوم، قبل هذه السنة. لقد عبرت جبينه أحداث أفظع، وغص قلبه بالدم ألف مرة قبل الآن. بوسعه أن يذهب غداً إلى المستودع ويعمل، كأن شيئاً لم يحدث. إن شيئاً لم يحدث في الحقيقة. فاليوم مثل البارحة، مثل الغد. سوى أنه اليوم قرر أن كل شيء انتهى، أن رحلة الأفيون يجب أن تتوقف، وأنه يجب أن يتوقف، أنه يجب أن يقتل.

لا يعرف بالتحديد جدوى هذا القتل. لم يفكر فيه من هذه الناحية. فجأة رأى أنه تعب، داخ من الركض، وأن ضربة خنجر عند عظم الترقوة ستمنحه السلام. واجتاز شارعاً آخر في طريقه لأن يقتل.

هذه السلسلة الجهنمية يجب أن تقطع. مذ طرد من الأرض، بل قبل، أن يطرد من الأرض، وسعيه لأن يجد عملاً يتكلل بالفشل. يوم ذاك تراكمت عليه الديون. هبط إلى الميناء الصغير يعمل عتالاً. وهناك انضم إلى الجموع السائمة، ووقف بانتظار أن يلتقطه صاحب الغليون والقبعة. مع ذلك، أرسل من يقول لها أن هذا كله لا يهم، إن قليلاً من الانتظار ضروري، وبعده يتحقق كل شيء.

لكن أخبار الاغتصاب أمضته. كانوا يتعاورون عليها، ثم يخبئونها بين جدران القصر. وضاق به الخبز والعمل. وقال له صديق أن بلاد الله واسعة، وأنه لا بد واجد عملاً في مكان ما. وظن الأمر كذلك. في الليل حزم متاعه القليل وخرج.

الآن سيقتل، ثم يعود. سيأتيه في مكتبه. بلا كلام. بلا ضجيج. وحتى بلا غضب. يقتله ويعود. يجب أن ينتهي التيه وتنتهي المطاردة. لا يعرف ما النتيجة. لكن جسده المضرج بالأفيون يصرخ طالباً فصد الدم. صرخة وحشية. صرخة مدمن اجتاز عتبة الخمسين وهو لم يتناول قط جرعة أفيون كافية. كان دائماً يعطي القليل، فقط ليلهث وراء الكثير المستحيل. اشتغل حمالاً، وأجير كواء، وقاطع تذاكر، وبائع أوراق يانصيب، وماسح أحذية، وحارث أرض، وحارس قصر، وأجير لحام، وغاسل سيارات. انتقل بين معصرة زيتون، ومعمل، وآخر للنسيج، ومطبعة، ومكتب للحكومة.

وقبل بذلك كله. رآه شيئاً من طبيعة الحياة. فمثلما يدخل العجين إلى بيت النار ليصير خبزاً، عليه أن يقبل كي يصل إلى شيء من الخبز. وكل مرة كان يتراءى له أنه أخيراً سيشبع، سيكون بوسعه أن يعود، ويختطف زهرة، يخلصها، ويعيشا معاً.

في البداية كتب لها، وكتبت له. خمس سنوات والصديق ينقل الرسائل. ثم انقطعت الصلة الوحيدة التي تربطهما. كان يخبرها عن عمله ومسكنه، وتصميمه على تحقيق الحلم، فتكتب له أنها تنتظر. عن المبلغ الذي جمعه كبداية، وبعد فترة يرسل المبلغ لأمه المريضة أو أخته الصغيرة الجائعة؛ عن كنبة أو خزانة اشتراها، ثم باعها لأنه صار بلا عمل – فتكتب له أنها تنتظر. كان يخبرها عن التعب، وصعوبة العمل، والأجر القليل؛ عن إغراءات الخمرة والتسبب، والشعور الذي صار مزمناً بأن الرغيف لن ينصاع له – فتكتب له أن يصبر ويستمر لأنها تنتظر.

لم يدر هل ماتت، أم زوجت، أم جنت، أم سجنت. انقطعت رسائلها مرة وإلى الأبد. وظل وحده يصارع الرغيف. وهو الان ذاهب ليقتل. منذ أسبوعين وهو يلح في طلب الموعد. منذ أسبوعين فقط عرف الحقيقة المرة: لم يكن يصارع الرغيف لأجلها، بل لأجل الرغيف. لكي يستمر في العيش.

وأي عيش! لقد دخل السجن بلا سبب، وخرج. ودخله لسبب. هناك ضرب وجلد وأذل. ثم خرج. ودخل رابعة وسابعة وعاشرة. ثم خرج. كان دائماً يخرج. لم يجد نفسه داخل أي مكان أو حدث أو زمان.

طيلة الوقت ظل على حافة الحياة. ظل ينتظر الخبز الدائم. يشبع موقتاً، يجوع غالباً، يفتقد الأمن والراحة دائماً. كان باستمرار يدفع ثمناً لخطأ ما لا يعرفه. يشعر أنه بقليل من القوة الإضافية يمكن أن يجعل الخبز دائماً، لكن لم يعثر عليها. وتطاولت كبواته.

وكانت الأخبار تصله دائماً. بعد أن فضت البكارة، أنها شيء ما في زهرة. تلاشت الهالة. خرس صمتها البليغ، وتوغل الضباب الأسود في رأسها. لم تعد العائلة تجد فيها شرفاً يهان أو يصان. ولم يعد المستوطنون يخشون بأس أحد، فأقاموا لها ولائم الجسد وجروها إلى مخادعهم. لم يدفعوا الدية، وإنما أخذوا حصتهم.

يخلف المدينة وراءه. هناك هو: الضوء يشع من مكتبه وسط البنـــاء المظلم. يراجع حساباته.

يطمئن إلى ربح أفرانه وكميات خبزها. لن يقول شـــيئاً. ســـيريحه ويرتاح. قبل اسبوعين مات رفيقه أمام فوهة الفرن. وفي ذلـــك اليـــوم تحسمت ليرة واحدة من أجر كل عامل. كان لا بد من إرسال إكليل من الزهر.

سيقول له إن إكليل الزهر ليس أعظم ما يتمنى الحصول عليه عـامل يموت أمام فوهة الفرن.

يمشي على الطريق الخالي. الأرض المتموجة تمتد حوله. السماء تتبرقع ببعض النجوم. الصمت يهيمن حتى على خطواته. يصل إلى المدخل. يحيي البواب:

عندي موعد مع المعلم.

أعرف. تفضل.

يصل إلى الطابق الثاني. يقرع الباب. يدخل. ها هو ذا أمامه. يلتفت المعلم إليه، ينـــزع نظارته:

مستغرب إصرارك على رؤيتي. ماذا تريد؟

أريد أن أستقيل يا بيك.

ينظر إليه مستغرباً:

تستقيل؟ بهذه الطريقة؟ قدم استقالتك للمدير الإداري.

كل مرة أقدم استقالتي للمدير الإداري. بعدئذ.. ينتهي كل شـــيء. اليوم.. بيننا حساب، بودي أن أصفيه.

أنا أعطيك أجرك بالكامل. أي حساب؟

أنا أعمل في واحد من أفرانك. لكني لم أشبع الخبز في حياتي. حياتي مضت. وأنا الآن في الخمسين. وكل يوم أقول: غداً أشبع الخبز. دائمـــا مشغول بالخبز. أنساني كل شيء. أنساني حياتي نفسها. أنتم تلوحون لنا

بالخبز كما يلوح بالجزرة للحمار؛ ونحن ندمن الإنشغال بالخبز. وأظن أنك مسئول عن موت حياتي.

أنت مجنون؟ أنت تعمل عندي منذ شهرين فقط.

كلكم واحد، وأنت ستدفع عن الكل.

ثم يسحب الخنجر. لا يسمع الكلمات الخارجة من الفم الذي شهق. شهق عندما غاص الخنجر قرب عظم الترقوة. وجمد إذ خرج الخنجر مضرجاً ومضى إلى إبط صاحبه.

على الطريق يسحب من جيبه مرآة ويضعها أمام وجهه. يحدق قليلاً ليشاهد التقاطيع كلها، فالمرآة لا تكون قط في الوضع المناسب. يتأمل التهدلات والخطوط، ويشد بإصبعيه على خديه، ويرخي ذقنه. أجل، هذا هو العام الخمسون بكل علاماته.

يمضي إلى محطة الباصات. يسترجع حقيبته، ويضع فيها المرآة. رغم الزحام، يتدبر مقعداً. يجلس. بين حشد ضبابي من الركاب الذين لم يقتلوا، يسترخي ويغمض عينيه. ينام، فلا يوقظه سوى وصول الباص.

يدخل مثلما خرج: بمتاع قليل وظلمة ليلية. لا يدري لماذا عاد. ولا ماذا سيفعل. ولا لماذا قتل. لعله تعب. لعله بات عاجزاً عن التعرف على نفسه، فأراد دونما وعي أن يعثر على ما بقي منها.

يمشي. يتفقد أمكنة الحواري القديمة فلا يجدها. يجد عمارات مترفة وأبراجاً سكنية شاهقة. يحاول أن يعثر على زاروب واحد قديم، فلا يستطيع. لقد انفتحت شوارع عريضة، وانتشرت حدائق فيحاء. هنا وهناك، ترش شجيرات الياسمين عطرها في الجو الصباحي وفي البيوت الهاجعة. وشاخصات المرور تنتصب على محاور الأرصفة.

يهبط إلى الشاطئ، ويحدق إلى المكان الجديد. أشجار الدفلى التي كانت تطرزه، قطعت: هنا، حيث رآها للمرة الثانية. مكانها زرع الاسمنت. والبحر صار الآن بيدراً للسفن.

يعود. يمضي إلى صديقه القديم في طرف البلد. يلاقيه الصديق متوكئاً على عصا، رافعاً رأسه بلا تعيين. يتلمسه بيده. لا يقولان كلاماً كثيراً، لكنهم يقولانه بحرارة.

مع الشمس يخرجان إلى مأوى العجزة القريب. عند الباب يقف ليلتقط أنفاسه التي تعارمت فجأة. بعدئذ يرن الجرس وينتظر. يتحرك في وقفته ويتأمل الدنيا القريبة حوله.

يقول للمرأة التي فتحت الباب:

عفواً، أفتش عن بنت.. امرأة، اسمها زهرة..

لا يتابع. يتفرس في الوجه المتهدل والعينين الكابيتين. بسرعة لاهثة ينظر إلى الشعر المتقصف، الكتفين الضئيلين، الصدر الممسوح، القامة المتقوسة، الفستان الزري. يرى للوجه لوناً شبيهاً بلون القيح، وللعينين استطالة فتيل متفحم، وللشفتين شكل الدود، وفي الجسد كله كومة من الغثاء والرثاثة.

كيف؟ يجيئه السؤال صاعقاً. أية جريمة شنعاء؟ أية استباحة للوجود؟ هذا التشوه.. لا يخطر حتى على البال. هذا الهلام الآسن، الضباب المتكثف، اللاشيء.

وهو؟ أين كان طيلة هذا الزمن؟ لماذا لم يحمل مسدساً ويقتل مغتصبيها؟ أو خنجراً ويقتل أسرتها الغنية؟ تاه في الخبز، وظل جائعاً. لماذا لم يقاتل، ومنذ البداية قالت له أن عليه أن يقاتل؟

صوت المرأة يعيده إلى الوعي. تقول له:

يا سيد. لم تسمعني؟ أنا زهرة. من أنت؟

١٩٧٩/٣/١

إلا على الله رزقها

نفض محمد يديه من الغبار، وتحسس الفرنكين الأبيضين في جيبه، ثم لملم حبات الدحل التي كان يلعب بـــها. واقترب من أبيه يتأمله وهـــو يغلق باب حانوته بتراخ وفتور، ويقف ساهما لبعض الزمن وأصابعه مـــا تزال تمسك بسلسلة المفتاح.

الذباب يطن صوته في الأذن، وكثرته تخلق دوامة تنهب الأعصـاب. وإلى الأمام يمضي طريق في تلو ملول. وعلى المدى تنهض أشجار الغوطة الشرقية ملفوفة بضوء الشمس المغبر، وتترامى في حبكة لا نـــهائية.

اقترب محمد أكثر وهو ما يزال يتأمل والده يسحب بيده المعروقـــة سلسلة مفتاح الباب، ويستدير فيرفعه إلى جيب بنطاله الخلفي. وبدا لـــه أن يد أبيه قد سهت عن موضع المفتاح المألوف إذ أنه انحـــدر بســـرعة يسحب إلى الأرض سلسلته. وهرع إلىالمفتاح، وانحنى ليلتقطه فـاصطدم رأسه برجل أبيه، وارتد على الأرض جالساً، حيث أخذ يتـــأمل هـــذا الوجه العابس بنظرة مذنبة. لكن الوالد لم يعره أي التفات، بل انزل يـده فالتقط المفتاح وتمتم:

لا اله الا الله.. أكان ضرورياً أن يقع المفتاح.

ولمح محمد على وجه أبيه سحبات شعورية مفعمة بالأسى، فتكمش في جلسته وأخذ ينقر الأرض بخشبة صغيرة. ونهض وراء أبيه المبتعد بخفة

متلصصة. وولج باب الدار المشرشر إلى ساحة صغيرة تتوسطها بركة مربعة لا رونق فيها ولا ماء.

محمد.. تعال هنا.. ولدت أمك؟.

وهرع ليجيب أباه أسرع ما يمكن الجواب، فاصطدمت رجله بأخته الصغرى الجاثية على الأرض. ووقف مذعوراً يتأملها باستفهام تارة، وينظر إلى أبيه بتخوف مرة أخرى.

أعمى.. أعمى.. خذ اذن.

وأحس بأصابع أبيه ترتفع إلى وجهه بيسر وسرعة فتطبع عليه صورها ببضع لحظات. وفيما يقرب من دقيقة كان قد تضايق من صوت أخته الصغيرة وهو يختلط نغمة بزفراته ويتصاعد في صحن الدار. والتفت إلى أبيه وقد فتح بابا ثانياً دخل منه إلى غرفة ترتفع أرضها عن مستوى أرض الدار، ثم انصفق الباب.

واقبل إلى أخته فرفع ذيل ثوبه المعفر بالتراب ومسح لها خديها، وربت عل ظهرها فأطرقت، وأخذت تنشم فترفع رأسها مع كل نشمة وهو يتأملها بأسى. وإذ أطلقت أنه طفولية مؤثرة رفع عينيه حزيناً تاعباً إلى جدار البيت الطيني البشع، ثم التفت إلى حيث ينتصب السلم الخشبي المخلخل الذي يصل الغرف السفلي بالغرف العليا.

ماذا تفعلن هنا.. هل ولدت أمك؟ اذهبي إليها واعتني بها.

عندها من يعتني بها.. اسكت أنت.

نهض محمد بسرعة وتقدم من أخته الكبرى بيد تحفز للضرب. وألفى أنها انتصبت أمامه بتحد صامت وقد رفعت أنفها فنظر إليها بحنق مغيظ ثم توقف في نفس اللحظة التي هم فيها بضربها. ونزلت يده ببطء، وراح يحدجها بنظرة وعيدة.

مؤمنة.. سأريك غداً.

والتفت ببطء مهزوم فعاد إلى أخته الصغرى وجلس بجانبها.

أتأخذين فرنكا؟.. خذي.. معي اثنان.

لكن الصغيرة نهضت بخفة صامتة وخبت إلى حيث تقف شقيقاتها.

محمد .. يوه محمد.

وحين اندفع محمد يفتح الباب بسرعته المألوفة اصطدم بالعتبة فسقطت من يده قطعة فضية داكنة، وسريعاً ما كوم فوقها نظرات وجلة خائفة، وراح يتأملها دون أن يجرؤ على التقاطها.

امش بهدوء يا بني.. امش بهدوء.. ولكن ما هذا؟. فرنك؟. من أين لك ؟

وأسقط رأسه فوق صدره ووقف ممسكاً بالباب وقد تلبس وضعا سكونياً مذنباً، وراح يتوقع في كل لحظة المضطرم بصفعة أو ركلة. وأحس مرة أخرى بأصابع أبيه تحوم فوقه وتمسك بيده الملطخة، المطبقة على الفرنك الثاني بحزم، فتجرها إلى وسط الغرفة، حيث وقف محمد بخنوع.

لعبت بالدحل عن فرنكات؟ تكلم: لعبت عن فرنكات؟ لو خسرت فمن أين تأتي بها؟ قل لي (وأحس محمد احساساً غامضاً، لكنه مؤلم، بصفعة تدفع خده الأيسر نحو الأيمن) قل لي: معك فرنكات؟ من أين تدفع اذن؟

وأحس ثانية بخده الأيمن ينحاز للأيسر، فرفع يده الثانية بلا وعي وتحسس حنكيه، ثم جمدت أصابعه عليهما. وبين انكتام أنفاسه وجمود صدره عن الحركة جمجم ببضع كلمات:

كنت ألعب عن كذب

كذب؟ هل علمتك الكذب؟ عذر أقبح من ذنب؟.

وأحس أيضاً، وبنفس الغموض السابق، بصفعة ثالثة. وسقط على الأرض فتكور على نفسه، وطمر رأسه فوق بطنه.

ومع ذلك فهو لا يبكي، قم إلى أمك وانظر إن كانتَ ولـــدت.. تلعب بالدحل.. سأرى غدا كيف تلعب. رمق محمد فرنكيه بنظرة حزن مودعة، وانثنى إلى صحن الدار ليواجه اثنيَ عشر عيناً تتأمله بكآبة وشيء من الإشفاق وأقبلت (مؤمنة) إليه فوقفت بجانبه دونما كلام، وراحـت تفحصه بشرود كئيب. لكنه رفع رأسه عابساً وسارع يرقى السلم.

وضع أذنه عل الباب فتناه إليه من الداخل همهمة نسائية تتوتر بـين حين وحين بصرخة عرف فيها صوت أمه. وأحس بخواء متكمش يشـد نبضات قلبه ، فتهاوى ببطء وبلا وعي أمام الغرفـة، وأخـذ ينصـت مسلوب الأنفاس. كانت أمه تقطع سدره من وقت لآخـر بصراخـها الممطوط الزاخر بالألم، ولغط النسوة يتغلغل في سمعه فاتراً راكداً.

محمد.. يوه محمد.

وانتفض من مجلسه فأسرع ينـزل السلم إلى أبيه. وفي الغرفة وقـف أمامه مطرقاً ينتظر منه كلمة أو ضربة ومرت لحظات فرفع عينيه بوجـل وهدوء ليرى عيني والده تبحثان في الغرفة عن شيء ما.

الساعة.. هل رأيت الساعة؟

الساعة في يدك.. بابا.

وشعر بشيء من التسرية والارتباك، وتجرأ فنظر إلى أبيه يضع الساعة حول معصمه ويتمتم:

الله يلعن الشيطان.. اذهب أنت وأخواتك فتغدوا.

وأحس إذ سمع كلمات أبيه ببطنه ينفتح فيمتلئ جوعاً. وإذ اسـتدار لينطلق للمطبخ اصطدم جبينه بالباب المواربة وارتد على الأرض. وفيمـا أصغى إلى وعظ أبيه الهادئ الرصين، كانت يده تتحسن جبينه باستغراق واجم واليد الأخرى تمتد خلفه فتسند جزعه المائل إلى الوراء. وبتمـهل خائف أخذ يزحف حتى وصل للعتبة فعدا نحو المطبخ وتبعتـه العيـون

الإثنتا عشرة بتساؤل: إنه ليس ذاهبا ليأتي أباه بالغداء، فأبوه لا يتغدى، وهرولت البنات وراءه.

بابا.. بابا .. لقد أكل الغداء كله.

العمى بعينك لم أذقه بعد أنا أنزله لنأكل معا.

وعلى أرض المطبخ جثم سبعة يتقاسمون صحنا من الفاصولياء الباردة وفي كل يد كسرة خبز نصف قاسية.صاحت البنت الثانية فجأة:

ساجدة على مهلك.. أنت تغرفين الطعام غرفاً.

تقلصت أصابع ساجدة، وتأملت الباقين بنظرة متفحصة لعوب،ثم طفقت تأكل بحذر واستغراق.

هذه اللحمة لي.

هتف محمد وهو يقبض ببعض الخبز على قطعة اللحم الوحيدة في الصحن، ثم رفع عينيه إلى اثنتي عشر عيناً أخرى تحدق به باعتراض صامت. وجمدت أصابعه تحتجز القطعة فلا تتركها ولا ترفعها، فيما وقفت الأيدي الأخرى عن الطعام.

بابا.. بابا

صاحت الأخت الرابعة. وتبعتها فوراً أصوات أخواتها بنفس النداء. والتفت محمد فرأى "بابا" واقفاً بجانبه، وخيل له أنه يتحفز للانقضاض عليه، لكنه لم يترك قطعة اللحم رغم ذاك، و لم يرفع عينيه المترقبتين عن عيني أبيه.

من منكم يريد أن يأكل اللحم؟ الا تعرفون قناعة أبدا.

أطرقت البنات بركون، وتابعن الأكل. وقبل أن يزدرد محمد قطعة اللحم نظر إلى أخواته طويلا، ثم أخذ يعلك. وبعد فترة قصيرة صاحت البنت الخامسة في نصف بكاء:

أنهيتم الصحن، أنا لم أشبع..

فنهر محمد: كلنا لم نشبع.. ألا تعرفين القناعة.

ونهض ففتح الباب وخرج إلى حانوت ابيه. وعلى العتبة ولطا يتأمل "أبا سعيد" يتحدث ويشرب الشاي من كوب في يده. وسر محمداً أن يحملق بوجه "أبي سعيد" (النحاسي الثقيل، وسرواله ذي السرج الواسع. وتجرأت عيناه قليلاً فغمرت كوب الشاي الغضاري بنظرة بلع إثرها ريقه. وفيما هو سادر في اجترار منظر الشاي أحس بلكزة خفيفة. واستدار ليرى "مرزوقاً" ينحشر بجانبه ويشير له بعينيه. وأدرك محمد معنى الاشارة فرفع عينيه إلى أبي سعيد ثانية ورفض أن يتكلم. لكن اللكزات بخفوت والحاج فالتفت إلى مرزوق مغضباً:

لا لن ألعب.. رح من هنا.

وسأل مرزوق محللاً: ــ من أين تأتيك الفرنكات إذن؟

يرزق الله.. الله يرزق البشر دون أن يلعبوا عن فرنكات.

وتساءل مرزوق ثانية وهو يتعمد أن يحضه على اللعب: ــ وإذا لم يرزقهم؟

التفت محمد إليه باستغراب، ليواجه نظرة عابسة غاوية، تفحصه بإمعان:

إذا لم يرزقهم يموتون!!

فنقره مرزوق ثانية على جنبه: ــ يلعبون يا مجنون ليربحوا.. قم.

كلا اذهب عني وإلا ضربتك.

وتأمله يتراخى في جلسته، ثم نهض فدلف إلى الحانوت وجلس متجمداً. بعد قليل أعطاه أبوه كوباً من الشاي. وأطبق عليه بكل أصابعه: (قد ينكسر إذا لم أمسكه جيداً)، ثم رشف منه بحذر وبطء رشفة طويلة.

يا سيدي يرزق الله.. لا بد وأن تكون في كل ما يرسله لنا حكمة لا نفهمها.. بنت؟ بنت. صبي؟ صبي.. كلهم رزقهم عليه.. وما من دابة إلا على الله رزقها.

وشعر محمد أن كلمات أبيه تعزز موقفه من مرزوق فهز رأسه هزات موافقة، والتفت لأبي سعيد فرآه يهز رأسه هو الآخر برتابة ويطلق عينيه نحو الأرض. ورشف من كوبه رشفة أخرى ثم رفع وجهه وأخذ يحرك ساقيه.

هل زيد معاشك حاج؟

وتأمل — للمرة العشرين — أباه ينفي بلا كلام، ويتحسس رفوف الحانوت الفارغة بنظرة راكدة سادرة. فتح الباب فجأة وأطلت منه "راكعة" تلهث وتعلن أن أمها تلد. وهرول محمد إلى الدار، فصعد السلم وصراخ أمه الحاد يرعشه ويهز تفكيره. التصق بالباب، و لم يتمالك نفسه فركز، عينيه على ثقب المفتاح وأغمض الأخرى. وفي لحظات كان قد نسي نفسه فلم ينتبه إلا ورأسه يضرب الباب بقوة فيفتحه ويرتمي على الأرض.

ماذا تفعل ها هنا.. وكلهن في الداخل نسوان؟

ولملم محمد نفسه فانسل بخفة، وهبط الدرج إلى باحة الدار وهو يتحسس جبهته. ومرت دقائق رأى بعدها والده يقبل فيجثم بجانبه على الأرض وتتحلق يداه حول ركبتيه. وتأمله بتثاقلة لا تماثل حيرتها إلا حيرة أبيه نفسها، والارتسامات المنفعلة التي تلاعبت على وجهه.

هل وزعت بريد القرية اليوم؟

نظر إلى أبيه دونما جواب، يملأه الفزع والشعور بالذنب، ثم تساءل "لم لم يضربني؟" ونظر إلى أبيه بخمول.

كانت خطى ثقيلة تنقر على خشبات السلم، والتفت محمد فحدق بزوجة أبي سعيد قد أقبلت تتثاقل في نزولها ملفلفة بالسواد. ووصلت فخاطبت أباه بكلام لم يع شيئاً منه لكنه تردد في ذهنه طويلاً:

بسلامة أولادك.. التوأم الثانية ولدت ميتة أيضاً.

الصرصار

أشرقت الشمس في ذلك الصباح الشتائي. أفاق أبو ثائر وضغط على زر في ساعته. طمأنه ضوء الساعة أن الوقت ما يزال مبكرً.

انقلب على بطنه، ووضع الوسادة تحت رقبته وصدره. كان اجتماعات البارحة كثيفة وعديدة. وكان آخرها مرهقاً. وفيما صعدت الشمس عبر مسيرها السماوية، هبط هو مرة أخرى إلى قرارة النوم.

أفاق بعد ساعة وضغط على الزر. دقائق وتنتهي الساعة التاسعة. تمطى. نهض. مسح حبيبات العرق عن نحره وجبينه. هبط عن السرير. بحث بقدميه عن ممشاته. مد يده إلى الستارة وتحسسها حتى لامس الحبل. ارتد شقا الستارة إلى زاويتي الجدار. ألفت عيناه الظلام. هذه المرة، مد يده مباشرة إلى ملفات الأبجور.

سطع ضوء الشمس في الغرفة. غمر وجهه وكتفيه ونحره وذراعيه. تمطى للصباح الجميل. لن ينسى قبل خروجه أن يوقف مشعات التدفئة، ويترك للشمس أن تتغلغل في المترل كله. وعاوره كدر خفيف: منذ زمن بعيد وهو لا يستطيع النوم إلا في الظلام الدامس. وقف يتأمل الفيض السماوي البعيد. لم يعرف لماذا. انسحبت عيناه إلى شذرات الغيوم، فأعالي الأشجار في البساتين البعيدة، فرؤوس البنايات المتقاربة كحشد جماهيري، وأخيراً حطتا على حديقة المنزل.

الحديقة واسعة نسبياً. ستمئة متر مربع. نباتاتها النادرة وأشجارها محمية بسور اسمنتي. السور الإسمنتي معمم بمثلثات ثخينة من قطع الزجاج المدببة. النافورة الدوارة تنث الرذاذ على الحشيش الكثيف. والشمس أيضاً. الأشجار والأزهار تتمرجح في الضوء النمير. على أوراقها قطرات مطر.

نظر عبر الباب الحديدي إلى المحرس. لاحظ أن الحارسين جالسان باسترخاء. تضايق. أدار رأسه إلى الشارع المقفر. رأى الحارسين الآخرين على بعد مناسب من المنزل. بيدي كل منهما بارودته نصف الأتوماتيكية. الشارع مقفر. اطمأن قلبه.

الشارع مقفر. سوى ذلك الطفل يبرز من لا مكان. يمشي. تنسحب أصابعه على قضبان السور الحديدي للبناية المقابلة.

لأمر ما سرق الطفل عينيه. خطواته رتيبة ولكن نشطة. أصابعه تتزحلق على قضبان الحديد المدببة الرؤوس. استغراق تام. غير آبه لشيء. وخاصة حارسي الشارع المقفر. بل ثمة ما هو أكثر من ذلك في هذا الاستغراق. القامة الصغيرة، العزلاء، الخالية من أي مشهد للقوة. تلك الحركة الغافلة. الطفل نفسه. هذا الكيان الصغير الهش. لكأنه يسرق منه شيئاً. أكثر من مجرد العينين. شيئاً غامضاً لا يعرف ما هو. لكنه مقلق. بل مغيظ.

فجأة! اقتلعت أصابع الطفل قضيباً. غافل الحارسين. اندفع نحو النافذة. تسلق السور الحديدي المزجج. أرجع جذعه إلى الخلف.

اخترق الرمح أشعة الشمس، وطبقات الهواء، ومالت الأشجار يمنة ويساراً لتفسح له الطريق. اخترق زجاج النافذة، وصل رأسه المدبب إلى ترقوة أبي ثائر.

خرج إلى الحمام. هناك كان لا بد من الدخول المضني في رتابات الصباح الأليمة. التبول. غسل الإصبعين بعد التبول. التردد أمام فرشاة

الأسنان. ارغاء المعجون على الوجه. الحلاقة. غسل الوجه. المضمضة. التنشيف. كان الطبيب قد نصحه بالوقوف دقائق معدودات تحت ماء السحاح. وبعد حين اكتشف أن العملية صارت جزءاً من نمطية الحياة الخانقة؛ وهو رجل يكره العبودية -أيٍ كان شكلها.

تلك الممارسات كلها صارت جزءٍ من نمطية الحياة الخانقة. بل عبودية الحياة. هذا الطفل السمج! أية متعة مرحاضية كلإن يلقى في تمشيط أصابعه على جدران السور؟

قالت أم ثائر أن الفطور جاهز، والأولاد منتظرون. المجموعة الثانية من رتابات الحياة – بل الصباح ـــ الأليمة. لا، لا. هذا اليوم لن يفطر. "كلي أنت معهم". لأنه إذا فطر، سيغسل يديه وفمه مرة ثانية، وبالصابون. كذلك هناك احتمال أدهى ومؤكد: أن يضطر للدخول إلى المرحاض. وهذه ثالثة الأثافي. أن لديه اجتماعاً هاماً بعيد العاشرة.

عاد إلى غرفة النوم. رمى الرداء. بدأ يفك أزرار البيجامة. وها هي ذي ام ثائر، حاملة كوب حليب. كالعادة. وستقول له: "اشرب هذا على الأقل. بعد قليل تبدأون شرب القهوة على الريق. فنجاناً وراء فنجان. وفي آخر الليل يجافيك النوم."

كالعادة: لا مجادلة مع أم ثائر. وضع حافة الكوب بين شفتيه ودلق محتوياته في فمه. أمام البوابة وجد السيارة جاهزة. انتفض السائق من غفوته وأدار محرك السيارة. هرع الأربعة الآخرون. اصطفوا بانتصابة صارمة. أولهم فتح الباب. أجابوا بنبرة واحدة: "صباح الخير، سيدي." أولهم أغلق الباب. ركب قرب السائق. هرع الآخرون إلى السيارة الأخرى. نظر إلى السائق بفضول. كيف يا ترى يستطيع هذا الإنسان أن ينام في الضوء الساطع! على المقعد! بسرعة ينام وبسرعة يفيق! خمسة أولاد. ويا لهذا الأنف المريع! مثل حد السكين. مدبب. مدبب. اخترق

الرمح أشعة الشمس. وطبقات الهواء. لأن له حديد السيارة. وها هـو ذا مندفع إلى الظهر.

بحركة غريزية شد أبو ثائر ظهره إلى الخلف. وانشدت راحتاه على المقعد. يا للبلاهة. يا للبلاهة المطلقة. أو يشد ظهره إلى الخلف والرمـح قادم من هناك؟ أهو عاجز إلى هذا الحد أمام هذا القدوم الرمح. الطفـل المريع. من أين نبق هذا الصباح في الشارع المقفر. اخترقت السـيارتان شوارع كالأنـهار مكتظة بالسيارات والبشر، وجسراً فوق النهر المديد البطيء. المجموعة الثالثة من رتابات الصباح الأليمة. ثلاث مرات نفخت السيارة الخلفية نفيرها الإسرافيلي لتفك الزحام عن السيارة الأمامية. لكان شيئاً جميلاً هذا الزحام، منعشاً، بشرياً، له رائحة أرض بللها المطر – لولا أيادي الغدر والخيانة التي يمكن أن تمتد في اية لحظة.

تهادت السيارتان في الشارع المقفر. اتجهتا إلى المدخل المفتوح. حركة مفاجئة فتحت البوابة الحديدية. انتصابة صارمة. قبل أن تقف السيارة كان الأول قد انبثق منـها. فتح الباب الخلفي. خرجت ساقا أبي ثـائر. وفي تلك اللحظة تذكرت حواسه فنجان القهوة في المكتب.

في المكتب كانت مفاجأة صاعقة تنتظره. مفاجأة أطارت الضجـر والخمول من ذهنه. في العادة، يكون العبور من عند البوابة الحديديـة إلى الرواق فالمكتب عبوراً متدرجاً إلى جو المجموعة الرابعة من رتابات الصباح الأليمة. وهكذا كان. صعد درجاً. حيا من حيوه. تجاهل الهرج والمـرج اللذين سببهما مجيؤه. أحس أن بوسعه الآن أن يوقع على الأوراق، ويعتذر عن إعطاء المواعيد، ويحضر الاجتماعات المطولة. وحتى بعد أن رآهـم جالسين منتظرين، وسلم عليهم، لم يخطر له أن مفاجأة بهذا الحجم تكمن وراء ابتساماتهم الودودة الوقورة. حقاً، قليلة هي اللحظات التي ينسى المرء فيها مكانه وزمانه.

" أبو مازن يهرب! مستحيل!"

" أبو مازن. وفي هذه الظروف المصيرية التي تمر بـــها البلد."
"قطعاً في الأمر خيانة."
"إن لم يكن مؤامرة من نوع جديد لم نألفه حتى الآن."
"حتماً هناك مؤامرة. والأمر أخطر بكثير مما نتصور."
"ولكن كيف هرب؟"
"ما يزال الخبر صعباً تصديقه. واحد له هذه الخطورة والصدارة!"
"لأن أبو مازن مناضل صلب. ورفيق عتيق. ألا يمكن أن أعداء الثورة اختطفوه؟"
"لا يا أبو ثائر. مسألة هروبه، هذه لاشك فيها."
"ولكن كيف هرب؟"
"عندما أدرك أن أمره انكشف، هرب."
"ما الذي انكشف؟"
"تواطؤه مع أعداء الثورة."
"كيف يعني، انكشف؟"
"هناك أجهزة تسجيل حديثة. الواحد منـــها بحجم الصرصار. ثبت واحد منـــها في كرسي مكتبه. وواحد في كرسي سيارته. والثالث وضع لا أعرف اين في بيته. الحقيقة، منذ مدة وجهاز أمن الثورة مرتاب فيـــه. ولكن نظرا لمكانته ونضاله الطويل لم يصدقوا الحقائق الدامغة. الصراصير الثلاثة قطعت الشك باليقين. عرفت كيف، أبو ثائر؟"
"طبعاً، طبعاً. ولكن كيف أفلت؟ مجرم من هذا النوع يجب إعدامـــه فوراً. كيف هرب؟"
"لماذا لم يطارده رجال أمن الثورة؟"
"لا يهمك. سيلقى جزاءه العادل."
"سيفرغون رصاصهم في ظهره الذي أداره للثورة."
"العملاء وأعداء الشعب، أخفوه، فكأنه لم يكن."

"هذا الخائن، الوغد."

"باع شعبه، ووطنه."

بالطبع، ألغي اجتماع الساعة العاشرة الهام. واجتماع الساعة الثانية عشرة. تقرر عقد اجتماع عام طارئ لبحث الوضع الجديد، واصدار بيان يقطع الطريق على الخائن المرتد في المكتب، مكث أبو ثائر منتظراً الدعوة لحضور الاجتماع. أعطى لسكرتيره عبارة "غير موجود"، للرد على الهواتف. استقبل الزوار كالعادة.

في الثانية ابلغوه أن الاجتماع سيبدأ بعد عشر دقائق. لتو تفقد علبة الدخان. بعد ثلاث دقائق أبلغوه أن الاجتماع تأجل. خرج من وراء المكتب كارها الجلوس. مشى. وصل إلى النافذة. منذ متى يا ترى وهذه الستارة مسدلة؟ ما الذي وراء الأبجور نصف المغلق. ربما أن الشمس ما تزال ساطعة في الخارج.

دخل أبو شحادة حاملاً شطيرتي فلافل عرمتين: كالعادة عندما يراه باقياً في المكتب. جلس على الكنبة وراح يلتهمهما. اكتشف انه جائع حتى التضور. ان فمه يفلح فيهما كالبلدوزر. وأن هذه الفلاحة تمنحه شعوراً بالأمان. أبو شحادة يعرف غرامه. يعرف أنه رغم كرشه المتنامي لن يقاوم الفلافل. آه. تمطى واسترخى. تثاءب. أغمض عينيه. اخترق الرمح أشعة الشمس وطبقات الهواء والأبجور والستارة. انتفض. انتصب في الكنبة. يا للسخف. بل يا للحيونة. نتفة طفل، مؤكد انه بندوق، يكوبس عليه. طار النعاس. على كل حال، لم يكن ليستطيع ان ينام. ولكن منذ متى وهو لا يستطيع النوم إلا في الظلام؟

استرخى ثانية على الكنبة. لأمر ما طرفت عيناه بالثريا المتدلية من السقف. في ذرة خاطفة من الزمن انتصب شعيرات أعصابه. معقول! تجمدت عيناه على بقعة صغيرة سوداء ليست من اصل الثريا. نهض كالمسرنم. مشى. صعد على التربيزة. نزل. جر كنبة. وضع التربيزة عليها.

داس على الكنبة فالتربيزة. صارت عيناه أمام البقعة الصغيرة السوداء. ليس بقعة. حجم. كتلة صغيرة نافرة. بحجم الصرصار.

زاغ بصره. أمسك بالثريا. أمسك بالحجم. شده. حفره بأصابعه. لم يتزحزح. وضعه بين أسنانه وأطبق عليه. خرج بسهولة. امسكه بيده. يا للأبالسة! ما هذا؟ تجويف وحسب! حقاً له شكل الصرصار. لكنه مجرد تجويف. لا أسلاك فيه ولا يتصل بأي سلك! مكانه على الثريا اختفى. أهذا هو الجهاز العجيب؟ يا للسخف. بل للحيونة. طبعاً لا. ودونما عناء سحقه بين أصابعه. سحقه تماماً. وذر نثارته عل السجادة.

دخل أبو شحادة. شهق. طبعاً. معه حق. اليس شيئاً مضحكاً؟

" رأيت وسخة على الثريا. لم تعد تنظفها أيها الكسلان."

لم يجب أبو شحادة. لم يصدر عنه أي انطباع. سوى أن عينيه راحتا تمشطان وجه أبي ثائر، كأنهما أصابع. اخترقتا طبقات الهواء صعدا. وضوء الكهرباء.

بوثبة واحدة صارت قدما أبي ثائر على السجادة. "أيها الكسلان! هات خرقة، هات، وامسح الثريا!" أنزل التربيزة عن الكنبة. عاد إلى طاولته. جلس. لكن أبا شحادة لم يتحرك. التفت أبو ثائر إليه مستنكراً وقفته.

انغلق الباب ببطء وراء أبي شحادة. وثبتت عينا أبي ثائر على المقبض. راحتا تمشطانه بهدوء، وهو يعلو حول محوره بهدوء. أبو شحادة؟ مستحيل أصلاً هذا الصرصور لم يكن شيئاً. أبو شحادة؟ هه! اصبعان فقط سحقاه، فأي جهاز تسجيل؟

مد يده إلى الخلف وأطفأ النور. غرقت عيناه في ظلام دامس. استرخى في مقعده الوثير الضخم. ثم داعب النوم أجفانه.

لقد خدم الثورة كما لم يخدمها أحد. كان الساعد الأيمن. وفي هذا السبيل تعرضت حياته للرصاص القاتل أكثر من مرة. لا. ليس هناك شيء

يخاف منه. ليس هناك. أبو مازن وغد، خائن، عميل، متآمر، بورجوازي حقير، رجعي نتن، وسطي انتهازي. كان رائعاً أن جهاز أمن الثورة كشفه. رغم الثقة المطلقة من ذلك القلب الكبير. ولكن، متى تحول أبو مازن هذا التحول المذهل؟

فجأة انتفض في كرسيه. لا بد أن يعقد الاجتماع. وسيقول كلاماً كثيراً، سيطالب بالتشدد في مراقبة الازدواج والباطنية الثورية. إنما متى يأتي ويترأسه؟ طبعاً، يجب أن يتأكد مصير أبي مازن أولاً. يجب أن يطوق الحادث بسرعة. بعدئذ يأتي ويترأس الاجتماع. أو يستدعيهم إليه. إذا هرب ذلك الجبان، سيعطي مادة دسمة لأعداء الثورة. لذلك لن يأتي إلى الإجتماع قبل أن يتأكد من مصير أبي مازن. طبيعي. وهو الرجل الذي يكره الخيانة ولا يسمح بخلل من هذا النوع.

في حوالي الخامسة، اندفع الشباب إلى الغرفة. الأخبار؟ طيبة. والبشر يسرح في الوجوه. " في البداية جاءت اخبارية أن ابو مازن مختف في شارع حطين. طوق الشارع على الفور. فتش بيت بيت. ثم جاءت اخبارية ثانية أن سيارة مريبة تتجه إلى الحدود. أصدر أمراً بأن تطلع حوامة فوق ذلك الطريق. وطلعت الحوامة."

" وبعدئذ؟"

"وبعدئذ، قائد الحوامة اخبره باللاسلكي أنه يشاهد سيارة تنطبق عليها الأوصاف."

"وبعدئذ؟"

وبعدئذ أخبره قائد الحوامة أنه تحقق من السيارة، ومن وجود أبي مازن فيها."

"وبعدئذ؟"

لا شيء. لم يقل لنا مدير مكتبه شيئاً."

"والاجتماع؟ متى سيدعونا إلى الاجتماع؟"

"متى يشاء. الآن، لا نستطيع حتى أن نخمن ماذا ستكون مشيئته."
"قد لا يدعونا إلى الإجتماع."
"كيف! لا بد أن يدعونا!"
"أبو مازن.. أغلب الظن لاقى جزاءه المستحق. والأمور عادت إلى مجراها الطبيعي."
"فعلاً. لماذا الاجتماع اذن."
في العاشرة ليلاً تأكد أبو ثائر والشباب أن الاجتماع لم يعد وارداً قطعاً. وفي السيارة أحس بشيء من الإحباط وشيئين من الارتياح. سيدخل فوراً إلى غرفة النوم، يسدل الستائر، يطفئ النور تماماً، وينام. تطامنت نفسه. من ظهر المقعد الأمامي سحب المنفضة إلى الخلف. نفض رماد السيجارة. ولكن ما هذا؟
تخثر عقله وراء. بوابات أفكار شاء أن يغلقها. تخثرت سبابته وإبهامه رعباً على التجويف الصغير، وعيناه أيضاً. أمام الفيلا، هبط من السيارة كأنه جلد مئة جلدة. أحس أن مفاصله قد تباعدت أحدها عن الآخر. أن كتفيه قد هبطا مع ذلك أعطى توجيهاته للحرس، وتمنى لهم صباحاً خيراً. دخل. تلقفته أم ثائر في المدخل. "ما بك؟" "ما بي؟ " " تنظر إلى اللمبة هكذا! أولا تعرف أنه هنا لمبة؟" اندفع إلى البهو. نظر إلى الثريا الأولى، فالثانية. وقف مبهوتاً. لحقت به أم ثائر. "عندك ضيوف. وفد فلاحين من ضيعتكم." اندفع إلى الممر. نظر إلى اللمبة. تخثر. لحقت به أم ثائر. "محمود! مابك؟" لكن، أنا لا أفعل شيئاً!" من يقول أنك تفعل؟" "هذا الصرصار! الصرصار!" "من هو الصرصار؟"
اندفع إلى غرفة نومه، ونظر. فإلى غرفة ثائر، ونظر. غرف النوم الأخرى. اندفع نازلاً الدرج. اندفع إلى المضافة. عيناه عالقتان بالثريات. "أنا لا أفعل شيئاً؟ لا أفعل شيئاً. "نظر إلى الفلاحين الذين وقفوا بمهابة وارتباك. إلى أيديهم التي امتدت للسلام. بعضها كان مجوفاً. وبعضها

استقام كالسيف. ممدودة للسلام. لم يدر. أهي الصراصير الصماء على الثريا، أم هذه الأيدي، التي اخترقت أشعة الكهرباء، وطبقات الهواء، ووصلت رؤوسها المدببة إلى ترقوته.

١٩٨٢/١١/١٦

العربي التائه

بينهم جدار من الزمن طوله ثلاثة عشر عاماً.

في ذلك الليل جاءه اثنان وقالا أنه سيخرج. وسميح أيضـــا، والياس، ومحمود، وزياد.

لم يعرف إلى أين. كان عليه أن ينصاع فانصاع. خلال ثلاثـة عشـر عاماً جاءه مثل هذا القول مرات ومرات — ويخرج: إما إلى عمـق الأرض، أما إلى غرفة التكنولوجيا، وإما إلى مكتب النقيب دوف أو حاييم أو ليفي..

يخرج، إلى مكان صار مألوفاً: زنزانة تهوي في العمق ويهوي جسـده إليها، أياماً وأسابيع وشهوراً. وداخل ظلمة شاملة ورطوبة راشحة، يستنقع الجسد حتى يغترب عن صاحبه، يصير كتلة مجاورة موحشة، استطالة تضني.

يخرج: إلى غرفة الكهرباء، أو إلى غيرها من أماكن محنة الجسد، هنـاك حيث يصير بوده لو يتفرج على جسده، لو تنقطع علاقتـه بـه كمـا في الزنزانة؛ سوى أنه لا يستطيع. حيث ينخلع ظفر من إصبعه بلمح البصـر، ينشجّ سنّ وينفر دمه، حيث يثب جسده في شبه غيبوبة، يثـب مكرهـاً، والكهرباء تمخره، ويثب وجدران رأسه تترنح، ولحـم جسـده ينفلـع، والكهرباء تمخره، ويثب، ويشهق، وينطوي.

ثلاثة عشر عاماً.

في ذلك الليل انغلق الباب، واختلى جيمي كارتر وأنور السادات في حديث طويل. قال لنا المذياع أن الرجلين اختليا لإحلال السلام بين مصر وإسرائيل. قال لنا المعلقون الإذاعيون أن المستقبل السياسي لرئيس أعظم دولة في العالم معلق بكف عفريت، فإما السلام وفترة رئاسية ثانية، وإما الحرب والفشل.

من يعرف ما الذي دار بين كارتر والسادات؟ لا نعرف، نحن الذين لا نعرف شيئاً. يمكننا فقط أن نتصور: لقد جلسا على كنبات وثيرة بالتأكيد. كان بينهما مرطبات مصرية وبعض الحلوى، وربما ويسكي، وعلبة تبغ، وبالطبع مصيرنا نحن العرب. وبين حيث وحين، كان السادات يفرغ غليونه ويملؤه.

في ذلك الليل ساروا عبر الرواق، هو في الوسط والحارسان إلى جانبيه صعدوا درجاً: إذن الخروج إلى مكتب النقيب شموئيل. وقال لنفسه، بعد ثلاثة عشر عام، ماذا بقي في ذاكرته كيما يحلبونه؟ ألم يتعبوا؟

انغلق الباب، وصار وحيداً مع الضابط. ألفى نفسه صغيراً بين الجدران العارية، غريباً على المقعد المبثور، جامداً أمام نظرة الضابط الجامدة.

قال الضابط: هذه الليلة أنت مسافر إلى جنيف يا أحمد موسى.

من يعرف أحمد موسى؟ ما الذي حدث لأول سجين فدائي خلال ثلاثة عشر عام؟ لا نعرف، نحن الذين لا نعرف شيئاً. نحن نستنقع مثلما استنقع، تنشجّ حلوقنا مثلما انشج لحمه، نغترب عن عقولنا كما اغترب عن جسده. ولا نعرف شيئاً.

في اليوم التالي، كل شيء كان العادة مدوخاً: الوظيفة، والسير في الشوارع، وتسديد وصل الكهرباء، وشراء الخبز. عبثاً أسرعت. حاولت تخطي الدور فلم يمكنوني. وكالعادة وصلت متأخراً. رمي الخبز كيفما اتفق، وتفحصت البيت فلم أجد ميسون. إذن، فاتتنا نشرة الأخبار.

وضعت جسدي على الكرسي واسترخيت.

أخيراً جاءت. "تأخرت. كنت أسمع الأخبار في الشارع." أجل، قلت لنفسي، يا للغباء!

كيف فاتتني أن أسمع الأخبار في الشارع؟ "اتفق كارتر والسادات،" قالت. ومضت تهيئ الطعام. أجل، قلت لنفسي، لماذا الشدة؟ ما الذي كنت أتوقع؟ أن يضيع مستقبل كارتر السياسي وينجو مستقبل فلسطين؟

عندما حمل كل منا ملعقته وصحنه، قالت: "هم؟ دفعت وصل الكهرباء؟" قالت إني دفعت. قالت: "واشتريت خبزاً! لماذا أنت عابس إذن؟"

ثلاثة عشر عامً. كان ما يزال عريساً، بعد أربعة أشهر من زواجه. لا نعرف ما اذا كانت عروسه حلوة، أو طويلة، أو سمراء. نعرف أن كلا منهم أحب الآخر، وتزوجا. وكان في الثالثة والعشرين. ويمكن أن نعرف لماذا اختار الملابس الرقطاء واتجه نحو الموت. فليس شائعاً ولا عملياً أن تفقد الشعوب أوطانها. وهو من شعب تفرد خلال القرن العشرين بفقدان وطنه. وعندما صدرت الأوامر كان الخوف مستتراً تحت الملابس الرقطاء، تلجمه عند الكتف برودة وحول الخصر أربعة قنابل. كانوا أربعة. وفي تلك اللحظة ارتبطوا بإحساس مبهم متوتر.

ثم نشبت المعركة. كانت حامية الوطيس كأية معركة. نتيجتها معروفة سلفاً. ولكن ماذا كان شعورهم لحظة تسللوا واحداً بعد الآخر إلى هدفهم المحدد؟ أكان مثل شعورنا، نحن الذين نقف بالدور لشراء الخبز؟ كان أول معركة يخوضها فدائيون ضد جنود الاحتلال. وكانت معركة نسيت بعد أسابيع. ماذا كان شعورهم إذ فوجئوا بالحصار والرصاص؟ شيئاً آخر ولا بد غير شعورنا ونحن نتدافر ونتناعر أمام الفرن. وطعم المعركة؟ ومدة اليد الأولى نحو القنبلة؟ والانتباه المفاجئ إلى أن أحدهم أطلق صرخة مختنقة ومات؟ والثاني؟ والثالث؟ والموت؟

في المساء، أعلن أنور السادات أنه يرجو لجيمي كارتر نجاحاً في إسرائيل يعادل نجاحه في مصر. وأعلن المذيع أن ستة وسبعين فدائياً أسيراً سيفرج عنهم مقابل أسير إسرائيلي واحد.

كنا جالسين على الكراسي، ندخن، نشرب القهوة والشاي ونناقش في السياسة. ليس من عادة إسرائيل أن تفرج عن الفدائيين؛ قلنا. يا للذكاء الفاجع، أن تتم المبادلة يوم قبول السادات بزوال فلسطين؛ قلنا.

أحمد موسى. ترك عروسه ومضى يقاتل لاسترداد فلسطين. رفاقه الثلاثة قتلوا. أما هو فتخردق جسده بالرصاص، وارتمى قرب بارودته. في الصباح، عندما جاء الإسرائيليون لالتقاط الجثث، كان جسده واحداً من أربعة أجساد سقت الأرض بدمائها. تماماً كما ينشد الشعراء ويكتب الكتاب. سوى أنه لم يمت. قال لتوفيق أنه لم يدر كيف دبت فيه الحياة ومد يده إلى البارودة. أدرك في شبه غيبوبة أنهم حوله. لم يرهم. كانوا أعمدة من دخان. وقال لجسده انهض، فنهض. وتهاوت الأعمدة، ثم تهاوى جسده.

قال المذيع أن الذين راقبوا عملية التبادل ظلوا حتى اللحظة الأخيرة يتوجسون من أن يكون في الأمر فخ إسرائيلي. وتذكرنا كيف رفض الإسرائيليون أن يفعلوا الشيء نفسه في ميونخ، يوم كان عشرون منهم، أكثر أو أقل في وضع مماثل. وبعدئذ قتلوا. ثم بدأ الخوف يضمحل. قرأت الأسماء واحداً واحداً، وأعلن أصحابها عن أنفسهم. ثم انطلقت الطائرة بهم.

كان وصول كارتر إلى القدس موقتاً بلباقة. صحيح أن الزيارة تاريخية، لكنها يجب أن تبدأ بعد أن ينتهي يوم السبت عند مناحيم بيغن. قال المذيع أن الاستقبال كان حافلاً بأركان دولة اسرائيل، الجمهور، المصورون، المراسلون الصحفيون، البث المباشر. هؤلاء حولوا كل شيء إلى مهرجان. الحرب سوف تنتهي. ولن يكون هناك لزوم للفدائيين. ومناحيم بيغن سيبني المستوطنات بسلام. وأنور السادات سينصرف إلى إشباع ملايين الجائعين

في مصر ومقاومة الغزو الأجنبي لإفريقيا وآسيا. وجيمي كارتر سيسترد ثقة الشعب الأمريكي وينهي مأساة فلسطين.

ماذا سيفعل أحمد موسى؟ ثلاثون عاماً من الصراع الدموي، ثلاثة عشر منه في السجن. الزمن يسرع. حاكم يمضي وحاكم يجيء. وأحمد موسى في السجن. مئات المعارك وحربان طاحنتان. وهو في السجن. خلال عام تعلم كيف يغترب عن جسده. كان التعذيب أفظع مما نقرأ في الجرائد ونسمع في الإذاعة ونرى في التلفزيون. و لم تكن ثمة وسيلة سوى أن يرفض جسده.

قالوا له أنه محكوم بالسجن المؤبد، فقرر أن يغترب عن زوجته. أرسل لها حكم السجن وورقة الطلاق، وقال أنها إن توقع تغد طليقة. لكنها رفضت. ثم أرسل لها الورقة مرة أخرى.

ورفضت. وخلال عام تعلم أن يغترب عن الفضاء، والشارع، والحقل، والضوء. صار منظر الشمس حلماً، والهواء النقي ذكرى. وكلما أفاق من حلم عاش كابوساً، وعاد إلى اغترابه. وكان الوطن كله قد سقط، والشعب كله قد اغترب. أرسل لها الورقة إلى مخيم صبرا في لبنان. ورفضت. قالت أنها تعيش مع أمه في كوخ التوتياء، وتنتظر. كتب لها رسالة. قال إنها يجب أن توقع، وتتزوج، وتنجب أطفالاً يكبرون ويحررون الوطن. رفضت. قالت إن هناك أطفالاً كثيرون، يكبرون ويحررون. ولكن بالنسبة لها، لا يوجد سوى أحمد موسى. لقد سقط الوطن كله، لكن أحمد موسى لن يسقط. وهي ستنتظر.

ما اسمك يا زوجة أحمد موسى؟ ما شكلك وما لون عينيك؟ وماذا تفعلين؟ كيف تطوقين جداراً من الزمن طوله ثلاثة عشر عاماً، وتطلين على أحمد موسى من هناك؟ كيف عشت كل هذا العمر؟ قال توفيق أنك تستحقين تمثالاً. قال أنه رآك بعد خروجه من السجن، وكان مرتبكاً لأنه خرج وبقي أحمد. لكنك لم تظهري شيئاً يبرر ارتباكه. ابتسمت ونظرت

إليه بإمعان، كأنك تحاولين أن تأخذي منه ما لا يملك. قال إنك ابتسمت بهدوء، وقدمت القهوة بهدوء. سألته عن أحمد كل الأسئلة المتوقعة إلا واحداً: هل سيخرج. وقال إنك امرأة منذورة، سليلة عشتار التي بكت أدونيس حتى بعث حياً، وايزيس التي جمعت أشلاء أوزيريس وبعثته حياً.

ورأيتك امرأة من هذا الزمان. تتقنين الحلاب والصبر والانتظار. تعيشين بلا وطن. تمدين جسدك الذي لم يغترب عنك، على جدار طوله ثلاثة عشر عاماً. امرأة بنت أرضها، تشتهي، تبحث عن الخبز، تتمنى لو تسكن بيتاً غير كوخ التوتياء، تحلم بالأطفال والدفء والشمس والهواء النقي.

ثم قال المذياع أن جيمي كارتر عاد إلى بلاده مكللاً بالغار، فقد نجحت رحلة السلام. وقال إن المعاهدة ستوقع بين مصر وإسرائيل، بالأحرف الأولى، يوم الاثنين. وقال أن ستة وسبعين فدائياً سيصلون في اليوم التالي إلى دمشق، ومن هناك ينطلقون إلى أهلهم.

وحدث هذا كله. ذهب أنور السادات إلى واشنطن. وكان استقباله حافلاً. أركان الدولة الأمريكية، والجمهور، والمصورون، والمراسلون الصحفيون، وإذاعات العالم. هؤلاء حولوا كل شيء إلى مهرجان. وجاء أحمد موسى إلى دمشق. كان واحداً من ستة وسبعين، استقبلهم أصدقاؤهم ومحبوهم. وهرعنا إلى شاشة التلفزيون. جلسنا على الكراسي، وتفرجنا ودخنا.

لم نعرف من هو أحمد موسى. كلما ظهر واحد قلنا هذا هو. أخيراً صاروا ستة وسبعين أحمد موسى. بعضهم تكلم، وكانت نبرته عادية جداً: الفداء، السجن، التعذيب، تشويه الجسد والدماغ، الغربة، تحرير فلسطين. ثم انتهت الصور. أفقنا. تمطينا. نهضنا. مرة أخرى تكلمنا عن وحشية الاحتلال، عن القدس، والدولة العنصرية. وكان السادات قد وصل إلى واشنطن. وكان في انتظاره كارتر وبيغن. وعندما اتجه أحمد موسى إلى رفاقه في مخيم اليرموك، كان الرؤساء الثلاثة يتجهون إلى غرفة التوقيع. وعندما

عانق أحمد موسى أول مستقبليه، كان السادات يعانق مناحيم بيغن. وفي اليوم التالي كانت المدافع الاسرائيلية تمطر بلاد أدونيس بالقنابل. وكان أنور السادات قد أنهى أسطورة اليهودي التائه. وكان أحمد موسى قد وجد مخيماً للاجئين.

بينهما جدار من الزمن طوله ثلاثة عشر عاماً.

كيف التقى أحمد موسى وزوجته؟ لا نعرف، نحن الذين لا نعرف شيئاً. ليس سهلاً حتى أن نتخيل. هذان اللذان اغترب أحدهما عن الآخر بقوة السلاح والزمن، والتقيا بالصدفة، كيف يمكن أن يتواجها بعد ثلاثة عشر عاماً؟ الحب العفوي اليومي ليس لهما. ولا الاعتياد والألفة. كيف تعرف عليها وتعرفت عليه؟ أتذكر لمعة عينيه؟ شامة على الخد؟ امتلاء شفتين؟ غمازة؟ أغلب الظن أنها ارتبكت، جمدت، نظرت إليه بإمعان ولم تره تماماً. رأت أنهما يقفان على ذلك الجدار، لا على الأرض. أغلب الظن أنها لم تدر ماذا تفعل. ولأنها انتظرت ثلاثة عشر عاماً، آثرت أن تنتظر بضعة دقائق أخرى. أن تتركه يتصرف. ولعل ابتسامة غافلة تسللت إلى وجهها وفمها دون أن تعي. ولعل الدموع تسللت إلى أجفانها فخضلتها وهزت صورته في عينيها. لعلها كانت إيزيس أو عشتار ترقب عودة أخيها وحبيبها إلى الحياة.

وهو؟ ماذا فعل؟ كيف تصرف؟ هذا الذي نسيته الشمس ونسيها، والفضاء والهواء والشجر، ومدة اليد إلى وجه الحبيبة. هل اندفع إليها؟ أم وقف يتأمل الوجه، يتذكر التقاطيع، يغسل عنها بصمات ثلاثة عشر عاماً؟ عندما ابتسم السادات لمناحيم بيغن والمصورين، هل ابتسم أحمد موسى لزوجته؟ هل شعر أن هذه هي زوجته، وكفى، أم أن شيئاً ما قد فغر فمه بينهما كخليج من العلقم؟

لعله هو الآخر رأى أنهما يقفان على ذلك الجدار. لعل خضماً من المشاعر المقعدة هدر في جسده اللجيم وذهنه المخردق. وأحس أنه، مثل

أدونيس وأوزيريس، عليه أن يستعيد تكيفه مع الحياة، أن يستنبت نفسه من جديد، ويمد أغصاناً، ويورق. يتعلم كيف يعيش زوجاً، ومواطناً، إنساناً يسعى وراء العيش، يشاهد الأطفال والغبار والشجر. يبدأ وهو في عامه السادس والثلاثين حياة كان ينبغي أن يبدأها في عامه الثالث والعشرين.

قلت لتوفيق إنني يجب أن أرى أحمد موسى، لا بد أن أراه. قال اصبر، أعط الرجل فرصة ليتعرف على زوجته. قلت بل يجب أن أراه فوراً، أريد أن أرى كيف يعود أوزيريس إلى الحياة في عصر خيانة.

مضينا معاً إلى المخيم. سرنا بحسب المخطط المعطى لنا. وإذ اقتربنا مما افترضناه بيته، طلع بوجهنا صبيان في نحو العاشرة. كانا يتجادلان بحرارة. ويشيران بيدين تحملان بارودتين بلاستيكيتين: كل منهما يريد الآخر أن يلعب دور الإسرائيلي لتقوم المعركة.

شاهدانا فتوقفا. نظرا إلينا بصمت. ونظرنا إليهما.

قال الأول: جئتم لزيارة أحمد موسى؟ هو في وكالة الغوث.

قال الثاني: لا ، ليس في وكالة الغوث. هو في الفرن يشتري الخبز.

قال الأول للثاني: هو في وكالة. راح من ساعتين.

قال الثاني للأول: لا، هو في الفرن، يشتري الخبز.

قال الأول: ساعتين في الفرن يا مجنون؟

قال الثاني: نعم ساعتين. زحمة كبيرة في الفرن. أنت عارف الفرن.

قال الأول: لا ، لا. هو في وكالة الغوث.

نظر توفيق إليّ، ونظرت إليه.

١٩٧٩/٤/٦

موت كاتب متجول

شجرة نسبه تنتهي إلى آدم عليه السلام. وهذه الحقيقة لا تهمه، بل لا يهمه كون الشجرة منتهية إلى قرود افريقيا. (هو) لم يكن حاضراً يوم ولد جده الأول.

إحدى جداته كانت شر موطؤة نالها الذكور الصليبيون. وكان جده رجلاً يعيش في السهول، على جسده تمر أحذية الولاة والباشوات والعسكر والطبيعة. وكان أبوه فتى عندما قامت الحرب العالمية الأولى. وكان (هو) طفلاً يحبو عندما قامت الثانية.

ثم تتالت الأحداث. لم يكن (هو) حاضراً عندما تناول الصهيونيون فلسطين من بريطانيا والأمم المتحدة. لم يكن حاضراً عندما مزق الرصاص جسد سلفادور أليندي. لم يكن حاضراً عندما اجتمع بريجنيف ونكسون في فلاديفوستوك، ولا عندما افترقا في بكين.

(هو) غالباً لا يحضر. لم يحضر موت إنسان جوعاً: كيف يضمر لحمه حتى يتلاشى ويلتصق الجلد بالعظم، وتتجوّر وجنتاه وعيناه حتى تغدو أوكاراً، وينتهي دون أن يكون قادراً على الشعور بالموت.

لم يحضر موت إنسان في المعتقلات: كيف تصعقه الكهرباء، أو يفتت لحمه السوط، أو تجهز عليه ضربة فأس، أو يترمد بمذيبات اللحم، أو يتعفن في الغياهب.

لم يحضر حرباً، ولا مؤامرة، ولا اغتيالاً، ولا مفاوضات، ولا انقلاباً عسكرياً، ولا عملية تجسس مثيرة، ولا جلسة نيابية، ولا سرقة او رشوة. باختصار، لم يكن حاضراً حتى في ساعة ولادته.

لكن (هو)، رغم هذا الغياب الآبد، حضر ذات يوم، وصار محرراً في مجلة. وكان ذلك بعد سقوط بغداد بسبعمائة عام ونيف، في العام الخامس والثلاثين لحكم الجنرال فرانكو في اسبانيا، وفي فترة الظهيرة من قضية ووترغيت الأمريكية. ومع أنه لم يحضر يوم اكتشاف فوائد البخار، فهو يملك طنجرة بخارية؛ ولا يوم اختراع الكهرباء، فبيته منار بها؛ ولا يوم اختراع الاتصال اللاسلكي، فهو يتكلم بالهاتف؛ ولا يوم القاء القنبلة الذرية على هيروشيما، فهو يخاف منها؛ ولا يوم هبوط الإنسان على سطح القمر، فهو يؤمن به.

إذن، على هذه الأرض المكونة من خمس قارات وخمسة محيطات، وبين أناس تشكلوا منذ عشرات آلاف السنين كبشر متميزين عن القردة والنسانيس، صار لـ (هو) مكان: نصف غرفة، كرسي، طاولة، نصف جهاز هاتفي.

و (هو)، رغم هذا الغياب الآبد، مليء بالأسرار. لقد تعلم بالتدريج أن يحب قوس قزح حباً عميقاً راسخاً. يحبه لأنه الحياة نفسها، لأنه قوس وليس خطاً مستقيماً. يحبه لأنه حافل بالألوان، ولكل لون جاذبيته. ففي يوم يكون الأحمر أكثر مخاطبة للنفس: بحرارته واحتدامه وإثارته. وفي يوم يتقدم الأزرق وينتشر في ساحة الشعور، هنياً مترفاً مريحاً. تارة يكون الأصفر، عندما تتوعك النفس أو تشف فيها الكآبة. وتارة يكون البرتقالي، عندما ينسكب بياض الحياة ورغدها على تطوحات الأحمر وضجيجه. وبفعل تجارب الحياة، أثناء كتابته للمجلة، وعبر اتصالاته بالبشر، تعلم (هو) أن يكون حضوره غائباً وغيابه حاضراً، واكتشف

البنفسجي. أدهشه اللون الرائع، إذ لم يكن يتصور أن بوســـع الأحمــر والأزرق أن يأتلفا في لون جديد.

شغلته توالدات الألوان إذ تمتزج. أمعن النظر في الألوان الناجمة عــن تداخلاتها في قوس قزح. وأدرك أن لنظرية النسبية بعداً جمالياً أيضاً، وليس أخلاقياً فقط. شيء واحد لم يتسنَّ له أن يبحث عنه: أي لون يحب.

و (هو) يعرف الأبيض والأسود. لقد قرأ كثيراً من الكتب، واعتصر حكمة الأولين والآخرين. وتكلم مع كثير من الناس. يوم تحدثت الأخبار عن مجاعة فتكت بعشرات الآلاف من الهنود، ترقرقت نفسه بالدمع. ويوم قرأ عن الملايين الخمسين الذين قتلوا في الحرب العالمية الثانية، رأى الحيـلة البشرية ملفعة براية سوداء. ويوم اعتقل جاره، وغاب بلا رجعة، أحـس بالهلع وخرجت الطمأنينة من قلبه.

لذلك يطيب له بين حين وحين أن يتحدث مع (هو الثــاني) عــن الخبز والحرية. فكثيراً ما يحدث أن يخرج إلى لسانه شـــعور أحمــر، أو كلمات سوداء، أو أفكار برتقالية. وقليلاً ما تنطلق من هـــذا اللســان كرات ثلجية تحمل الشعور أو الكلمة أو الفكرة.

وذات يوم بهيج أغلقا الباب. تمترسا بطاولتيــهما. أحســا بحريــة مساحتها عشرون متراً مربعاً من مساحة الكرة الأرضية، التي تكون مــن خمس قارات وخمسة محيطات وغلاف غازي. عندئذ تكلم (هو). قــال أن الجميع يظنونه غائباً، أهبل، يحسبونه بزالاً أو مفتاح مذياع، ينظــرون إليه كموسوعة في متناول اليد، صغيرة لطيفة. ثم زخر بتكشيرة ظــافرة واثقة. قال أنه يعرف الأحجام والأثمان والأشكال والأثقال والأشغال.

قال (هو الثاني) أنه مفجوع. قال إنه بلا حجــم، ولا ثمــن، ولا شكل، ولا ثقل، ولا شغل. وإنه يتمنى لو يحطم هذه الطاولــة، لكنــه يعرف أن يده ستنكسر أولاً.

قال (هو) أنه أيضا لن يجازف بتحطيم يده. لقد تعلم أن الحياة أثمن من معركة خاسرة. قال أنه يعرف كيف يحتفظ بملكيته لهذه المساحة الصغيرة من الحرية، ويظل ساخراً من محاولات اقتحامها.

قال: يظنون أننا دمى بأيديهم. دعهم يظنوا ما أحبوا. نحن نبقى وهم يذهبون. الم يقتلوا لوركا؟ هذا ما حدث في النهاية؟ عاش لوركا، وماتوا هم. دعهم يظنوا ما أحبوا. صرنا نعرف اللعبة. نعرف كيف نحافظ على رقابنا، نضحك عليهم إلى أن يلحقوا بفرانكو وسالازار. نحن ضمير هذا الشعب ولا يمكن أن نموت.

ومد كفه مهسهساً بضحكة مخاتلة، وخبط (هو الثاني) بكفه عليها. ضحكا. استرخيا على مقعديهما. عندئذ رن جرس الهاتف. وتلقف (هو الثاني) السماعة. أنصت قليلاً، ثم أربد وجهه.

آلو.. نعم.. لا أنا زميله في الغرفة.. لحظة أستاذ.

ألقيت إلى (هو): المسؤول الثقافي يريدك.

أنا؟.. مستحيل!! لماذا؟.. لست هنا، لست هنا.. انتظر.. اعمل كأنك تبحث عني.

لحظة أستاذ.. أظن أنه في الأرشيف.. طيب.. على عيني.

ماذا؟

وضع (هو الثاني) السماعة. قال: يريدك بالسرعة الممكنة. اذهب إليه في مبنى الرئاسة.

لماذا؟

قلب (هو الثاني) شفته.

كيف كان لهجته؟

لهجته! رقيقة كورق الورد. عذبة مثل صوت زرياب.

اذن، يريدونه أن يحضر. بالسرعة الممكنة.

صمت المكان. أصابع (هو الثاني) راحت تنقر على الطاولة. بحركة لا إرادية، نهض (هو) وفتح الباب. عاد. جلس وراء طاولته.
بالسرعة الممكنة. أن يحضر بالسرعة الممكنة. المسؤول الثقافي نفسه، نفسه دفعة واحدة.
خمسة وثلاثون عامٍ، والآن: دقت الساعة. مثلما حدث لجاره: الحضور عند المدير، وبعده حضور عند مسؤول من نوع آخر.
على الطريق إلى البيت، حاول أن يتذكر. مئة واربعة عشر عدداً من المجلة: مئة وأربعة عشر مقالاً.
ما الذي سيعتبره المسؤول أحمر؟ ما الذي سيعتبره أزرق؟ أيها خرج منطقة تداخل الألوان؟ حاول أن يتذكر. لم يتذكر. لقد مرت على العالم مئات الأحداث، صدرت آلاف الكتب، قامت عشرات المعارك الثقافية. وكان مطلوباً أن يتداخل على التوالي.
في أي تداخل يكمن الخطأ؟
على الطريق سمع من مذياع أحد الحوانيت تصريح (أحد المسؤولين): العرب لا يريدون من الغرب أن يركع على قدميه بسبب حاجته للنفط العربي، يريدون فقط حقوقهم المشروعة. وفي غمرة هواجسه تساءل: متى ينهض العملاق العربي؟
ثم سمع كلمات قليلة عن الحرب الدائرة في انغولا بين الوطنيين والرأسماليين، وذابت البقية داخل ضوضاء السوق. وفي غمرة هواجسه تساءل: متى ينهض العملاق الإفريقي؟
ثم اصطدم به رجل خرج مغضباً من حانون البقال: بليرتين، قال بليرتين! البارحة كنا نشتريها بنصف ليرة! هيا الدنيا انقلبت عل رأسها؟
أسرع يغذ الخطى. لم ينتظر اعتذاراً من الرجل الذي لم يبد عليه التفكير بالاعتذار. بالسرعة الممكنة. الحضور بالسرعة الممكنة.

في البيت تدفق نحوه طفلاه. الحب الذي خفق في قلبه تلاشى بعد لحظة. جرفه شعور تداخل فيه الخوف والعداء. هذان الجروان المفترسان. العلقتان الماصتان. لأجلهما جاع وتحمل ألف اهانة. لأجلهما تحول العالم من ملعب إلى شاشة في الذهن. لو كان زوجه عاقراً لاعتبرها أفضل امرأة في العالم.

يا الله إلى المطبخ! نادي أمك وقولي لها أنا في المكتبة!

لم يكترث لانكفاءة الوجهين الصغيرين، ولا للدهشة التي جمدت جسديهما. على العكس، أحس برضى آني لأن مناسبة جاءت واستطاع فيها أن ينتصب ويضطهد أحداً ما، أن يصرخ بملء حلقه، دونما خوف، ويلقي أوامر.

في المكتبة راح يعمل بسرعة. تناول المجلات عن رفوفها، ورتبها على الطاولة. جاء بالكرسي، ونفاضة السجائر. أخرج الكبريتة وعلبة الدخان ووضعهما إلى اليسار.

التفت إذ فتحت زوجه الباب. بطنها المنتفخ ومريول المطبخ المنسدل عليه أرسلا فيه حسا بالرثاثة: حتى الخطأ الذي يصنعه بيديه، لا يمكن إيقافه. وتضاعف الحس فغدا شعوراً بالعجز والخور.

هذه الحياة الصماء المقتحمة في رحم امرأته، أقوى منه. بل هي هزء به، هزء كامل. ورأى أنه كتلة لا حول لها ولا قوة. وتحول غضبه إلى نظرة ضارعة مسح بها على وجه المرأة الودود المتعب.

ألم تتصلي بالطبيب؟

لم تجب. لم يعبر وجهها عن شيء.

ثلاثة أولاد كثير. يكفينا اثنان.

لم تجب. لم يعبر وجهها عن شيء.

أنت تريدين الولد. أعرف. ألم تتصلي بالطبيب؟

طلب أربعمئة ليرة.

صمت (هو). ابتسم. نخر. نهض فجأة عن الكرسي. اتكأ عليها.

وماذا؟ أربعمئة ليرة فقط. مقابل حياة غير مرغوب. أربعمئة ليرة لا غير. شيء تافه. الأميركان يصرفون بلايين الدولارات للوصول إلى القمر. لماذا لا أدفع أنا أربعمئة ليرة؟ الآن، اين هو.. هذا هو الجزدان. خذي. هذه أربعمئة. هذه ألف. عشرة آلاف، إذا شئت. اشتري لي الموت والحرية. اذهبي فوراً إلى الطبيب. أنا لا أريد الولد. يكفينا اثنان. أنا حر. يكون لي أولاد أو لا يكون، أنا حر. هكذا يفعلون في إيطاليا، وفي كندا، وفي الصين، وحتى في القطب الجنوبي.

الناس أحرار. أحرار حتى الموت. من يوليوس قيصر إلى أيام فرانكو. أحرار حتى الموت.

ثم صمت. اشعل سيجارة. شعر أنه فقد صوابه.

عندنا بن؟

اشتريت نصف كيلو.

نصف كيلو! كثير. يكفينا أوقيتان. أريد قهوة. اتصل أحد.

لا.

اذا أحد اتصل، أنا غير موجود. والأولاد، ابعديهم عني.

ماذا حدث؟

اذهبي الآن. اصنعي لي قهوة.

نظر إليها وهي تخرج دون أن تستدير، وإلى يدها وهي تغلق الباب. فجأة صار وحده: بالسرعة الممكنة. جلس على الكرسي. وضع السيجارة في المنفضة. تناول العدد الأول.

بين العدد الأول والعدد الأخير، تلاشى المكان والزمان. وتلاشى (هو). كل شيء تحول إلى كلمات العالم بأجمعه. والكلمات ارتصت على الورق. بادر ماينهوف والجيش الأحمر. الجنرال أورتيغا وانقلابه العسكري. جائز نوبل للآداب. ماوتسي تونغ. النفط. الجفاف والمجاعة في

إفريقيا. هجمة فدائية على تل أبيب. حضارة الترف. سايغون. ويلي براندت. قصف اسرائيل الجوي لمخيمات اللاجئين الفلسطينيين. الدولار. هيلاسيلاسي. العودة إلى بوذا. البديل الأمريكي. الواقعية الاشتراكية. ريتشارد نيكسون والديمقراطية الأمريكية. حرب تشرين. قطع البترول العربي عن الغرب.

تبجحات موشي دايان. واقعية روجيه غارودي. فض الاشتباك على الجبهة المصرية. حرب الجولان. فض الاشتباك على الجبهة السورية. دراجة رئيس وزراء بلجيكا. أحمد زكي يماني. اتفاقية سيناء...

وعشرات من شؤون العالم، العظمى والصغرى. كلها كتب عنها. حدثت و لم يكن (هو) حاضراً، لكنها عبرت وعيه ولغته.

في أي تداخل وجد المسؤول الثقافي الخطأ؟

ما كتبه خلال مئة وأربعة عشر اسبوعاً، قرأه كلمة كلمة. لم يغفل حتى عن أن عينيه قد تعبتا. كلما خشي أن تكون كلمة قد أفلتت من الرقابة الصارمة، أعاد القراءة. فالكلمات، مثل قوس قزح، مخاتلة وزياغة للبصر.

عندما دخلت زوجه للمرة الثالثة، رفع رأسه إليها و لم يره تماماً. رأى دوائر ومستطيلات تنج وتتوهج وتتداخل. وحسب أن الأمر يعود للعتمة التي تجمعت دون أن ينتبه. لكن زوجه أنارت الغرفة، وبقيت الدوار والمستطيلات.

ألن ترتاح قليلاً؟ وتأكل لقمة؟

اتصل أحد؟

لا.

لا. الشغل واجب الآن. وعندي قهوة.

دخنت علبة كاملة.

اتركيني الآن.

ماذا حدث؟ نحن خائفون. طلبوك مثل جارنا؟

لاشيء، لاشيء. اتركيني الآن.

بعد ساعتين، انتهى. أطبق العدد الأخير ببطء شديد وأعاده إلى مكانه. ليس هناك خطأ. ليس هناك أي خطأ. استلقى بجذعه على الطاولة، أسند رأسه على كومة مجلات، وأغمض عينيه. لكنه لم يسترح. لو كان هناك خطأ، لعرف كيف يتدبر أمره. إنه سيد الكلمات، ويستطيع أن يزحلقها على قوس قزح، فيسل براءته كما تسل الشعرة من العجين. أمام عينيه المكدودتين المغمضتين، امتد فراغ هائل مجهول: ماهي التهمة؟ كيف يتلقاها وهو غير مستعد لها؟ ستخونه الكلمات والمظاهر. سيفر قوس قزح من ذهنه، ويبقى الفراغ الهائل المجهول. بل إنه فر منذ الآن. ما الذي يمكن أن يفعله المسؤول الثقافي؟ سيسرحه من عمله، أم يسلمه لمسؤول من نوع آخر. صحيح أنه (هو) وأنه لا يحضر في اية مناسبة، لكن كل مناسبة حاضرة في ذهنه. وماذا بوسعه أن يفعل، وهو يمتلك ذهناً.

يغيب عن المناسبات فتحضر إليه. هل قال كلاماً؟ هل مزح مزحة؟ هل استمع لمن قال كلاماً أو مزح مزحة؟

عندئذ بدأ ذهنه يفتح أياماً واسابيع وشهوراً، لقاءات واجتماعات ومناقشات. لابد وأن شيئاً ما قد وصل إليهم. حاول أن يذكر. لم يتذكر. لقد تطور العالم. لم يعد للصمت والابتسامة أن يحصنا السريرة ضد أدوات اكتشافها. صحيح أنه اشتهر بالدماثة، لفظاً وملبساً، وبوسعه أني يأتي باللفظة المناسبة واللون المناسب. لكن العالم تطور. لم تعد أسرار النفس قادرة عل الاختفاء. الإنسان لا أسرار له. الأسرار تقبع في مكان آخر. في حرب معلنة، في صفقة سياسية، فيبيع اليورانيوم لجنوب افريقيا، أو في المساعدات الأمريكية. (هو) لا أسرار له.

أيمكن أن يكون زميله في الغرفة؟ جيرانه الذين يدعونه للرد على الهاتف؟ أحد أصدقائه؟ أحد ما ممن يدخلون بيته؟

لأنه لم يعثر على جواب، تضاعف خوفه. تماماً كما حدث لجاره: بعد المدير، مسؤول من نوع آخر. ها هي المناسبة تحضر اليه، رغم غيابه المؤبد. في هذه الغرفة المعزولة عن العالم، الموصدة الباب، المغلقة الشبابيك، الصامتة صمت القبور، الموحشة وحشة الفلوات، التي نجت من التجربة لأنه تفادها – وسط هذه الغرفة، يضطجع (هو) داخل فراغ هائل مجهول، متهماً بما لايعرف، مطلوباً الحضور رغم غيابه.

لماذا غاب اذن؟

طالما النتيجة واحدة، لماذا قبل أن يغب؟ لماذا آثر أن يغيب؟ لكان أفضل بألف مرة لو أنه اتهم لفعلٍ قام به، بدلاً من وشاية حقيرة. لو أنه قال عبارة فقط. لو كتب سطراً.

تدخل زوجه للمرة الرابعة، بطنها المنتفخ أولاً.

اتصلوا بك.

من ؟

المسؤول الثقافي؟ قال أن تذهب إليه غداً.

اذن: ليس في الأمر مجال للالتباس. وهم يريدون اتلاف أعصابه أولاً. والا لكانوا أرسلوا من يسله خارج الغرفة كما تسل الشعرة من العجين. يريدونه جاهزاً فوري. ربما لانهم يضنون عليه بالوقت. أجل. هناك الحروب، المؤتمرات السرية، بركان الغلاء، الف مسألة تاريخية ومسألة. و(هو) ليس تاريخياً.

لم يبد مقاومة عندما أمسك يدا زوجه بزنده. نهض. تبع اشارة اليدين الصامتة. تجرجر نحو غرفة النوم. قبل أن يغفو، اندلع من منزل مجاور صوت مذيع يقرأ نشرة الأخبار بخطورة رصينة. بعد ثوان غاب الصوت. حضر الصمت. الظلمة. خمس قارات خمسة محيطات. خمسة آلاف سنة من الحضارة.

في العاشرة صباحاً، خرج (هو) من البيت، عازماً على لقاء رئيس التحرير وطلب المساعدة. مقاطع الدرج بدت له أشبه بكتل الطباعة على أوراق المجلة، وكل درجة سطر، إلا أنـها منحدرة. ضغط على صدغيه باصبعيه مسح بيده على شعره. عند الباب لم يتبين السيارة الجاثمة بحذاء الرصيف. لكنه اضطر إلى رؤيتها، إذ خرج من بابه الأمامي الأيمن شاب يرتدي الخاكي وعلى ردفه الأيمن انتفاخ معروف. ثم رأى السيارة السوداء، وبابـها الخلفي الأيمن المفتوح تماماً، وزجاجها الخلفي المستور من الداخل بستارة بنفسجية.

صباح الخير، استاذ.

أهلاً.

نحن بانتظارك.

أنا جاهز.

ودلف إلى السيارة كأنه يمشي في نومه. دفع لابس الخاكي الباب بقوة فدوّى صوت انغلاقه في اذني (هو). كذلك أغلق الباب الأمامي. ونخر محرك السيارة نخير قط نائم. وانطلق الركب.

رغم انقضاء سنوات، لم يفهم (هو) لماذا حدث كل ذلك. كان كل شيء دقيقاً وواضحاً، وأبعد مايكون عن المصادفة. لقد اقتيد إلى هناك بتلك الدماثة الزلقة والتكريم المريب اللذين يسبقان اعلاناً صاعقاً لنبأ قاتل. وعندما دخل المبنى لم يكن ثمة ما يشير إلى أنهم ينتظرونه. لكنه كان قد تضاءل. وعندما دخل المكتب، شاهد على وجه المسؤول الثقافي ابتسامة هائلة مجهولة، وشاهده ينهض عن كرسيه ويدور إلى اليمين ويرحب به.

مازال يحاول أن يفهم. بالطبع كان الأمر كله حبكة محكمة البناء. فإذا استرخى على مقعد السيارة وشعر أنه راح يتضاءل، كانت أمنيته الوحيدة أن تتاح له الحرية لمدة عشرين ثانية كي يبكي. غير أن هذا لم يحدث. وبدلاً منه، راحت عينا السائق تنظران في المرآة فتصطادان عينيه.

وبعدها وجد نفسه في المكتب. شاهد الابتسامة الهائلة المجهولة، وجسد المسؤول الثقافي يتحرك عن الكرسي وحول الطاولة ليرحب به، ليصافحه بتلك الابتسامة الهائلة المجهولة، ويجلس على كنبة بجوار كنبته.

يتذكر أنه في ذلك الصباح، عندما ارتمى على مقعد السيارة وهو لا يحس حتى بجسده، تلاشى خوفه تماماً. وعندما عبرت به السيارة الشوارع المكتظة الصاخبة، ونشرات الأخبار والأغاني، وحرارة الشمس، أدرك أنه لم يبق منه شيء عدا كونه على قيد الحياة. وكان المبنى هائلاً ومجهولاً أبكم محايداً. وكان (هو) ضئيلاً. لم يكن فيه مايشير إلى أنهم ينتظرونه. طبعاً. لقد اتخذ القرار، والمسألة مسألة وقت. الموضوع منتهـ. وهناك أشياء أهم يجب الالتفات إليها: الحروب، والمؤتمرات، والصفقات. لم يلتفت إليه أحد. وكان خوفه قد تلاشى تماماً، وحل محله انتظار بلا قلق، انتظار إنسان يتوقع الأسوء سوى أنه لا يعرف ماهو. وبعدها صافحه المسؤول الثقافي، وجلس على كنبة بحذاء كنبته. سأله عن أحواله وأطفاله، عن المجلة والعمل الصحفي، وحرية الأدب وراحة الأديب. وأشار تلميحاً إلى التقدير الخاص الذي يكنه لـ (هو). وكان (هو) قد عرف أنه صار نقطة. وكانت الكلمات تدور، والغرفة تدور، والعالم يدور. وكان (هو) ممسكاً بقشة جعلته يطفو على الموج: سيقبل بأي شيء، لن يحاول الدفاع عن نفسه.

بعد ذلك اللقاء، قال لزميله وهو يجر يديه الطليقتين في الهواء، وابتسامة الظفر والطمأنينة تتدفق من وجهه إلى كلماته:

ها! أتدري ماذا يريد مني؟ كان الأمر مختلفاً تماماً. لقد طلب مني أن أصير نائباً لرئيس التحرير.

١٩٧٨/٨/٢٦

القسم الثاني:



تلك الدقائق

ها هنا منعزل عميق، تصفر الرياح فيه، وتصير الصحراء غيومـــاً. أجلس وراء نافذة سميكة الزجاج. عيناي تعبران إلى الرمـــال الطـــائرة، حيث الأرض الوطيئة تهب بوجه السماء، وإلى مشهد مماثل إلى حد بعيد هو حياة بعثرها الزمن في فضائه.

كانت أمي تقول: الأرض الوطيئة تشرب ماءها وماء غيرها. أعرف منذ صغري أني أرض وطيئة. لكنني، الآن وقد رميت وراء ظهري نصف قرن من الزمن، لا أذكر أن شربت يوماً سوى ماء روحي. كل الأراضـي كانت فوقي، ومياهها أيضاً.

هناك أناس يخلقون هكذا. يكبرون، ويصيرون وزراء أو علمـــاء أو رؤساء شركات أو صحفيين كباراً.. وهم هكذا: الأراضـــي فوقـــهم ومياهها أيضاً. وطول عمرهم تمتلكهم قناعة ما بأنهم ليسوا ممن تحـــول الحياة مجرى أنـــهارها لتصب في أراضيهم.

شيء قريب من هذا الكلام قلته لسهير يوم التقينا أول مرة قبل ثلاثة وعشرين عاماً. دقائق قليلة أمضتها واقفة في منتدى النقابة، لكننا فـــوراً وبلا مقدمات اشتبكنا في نقاش مقتضب مازح عن التواضع. قلت لها إن كل ماء ينـــزل من فوق إلى تحت سيحمل معه نفسية التنازل. قلـــت إن الماء الذي يعطي تفضلاً لا يروي غليلاً.

طبعاً، تبدأ المشكلة عندما تبدأ أنت فتحس بحاجتك إلى جرعة من ماء الآخرين. وهذه أيضاً خلقت معي منذ البداية. هذه الحاجة القوية الهادئة التي تمسك بألوانها الكثيرة وترشها أمام عينيك على الأوقات والأمكنة. حقاً إن الناس كلهم يخلقون هكذا. الفرق هو في نوع إحساسهم بالحاجة إلى جرعة الماء.

في عشريناتي كنت أشكو بين لحظة وعي وأخرى من جرحي الداخلي الدائم الذي سببه أني خلقت وأرضي وطيئة. بنصف وعي، وبجهد كامل، سعيت للحل الوحيد: أن أرفع ارضي فأجعلها تبدو عالية كأراضي الآخرين. وكان لا بد في أول دربي إلى أن أصير طبيباً لامعاً من أن أستتر على كل مايشي بموقع أرضي في الجيولوجيا البشرية.

فماذا كانت النتيجة؟

كان أن هذا المخلوق الخائف باستمرار، الذي يرى الخيبة طبيعة في الأشياء، والعطش ناموس الحياة - هذا المخلوق الذي هو أنا، اكتسب بين أقرانه سمعة الانعزال والصرامة، وما هو أسوأ بكثير: سمعة الاكتفاء الذاتي في كل ما يتعلق بالمشاعر والمحبات والفرح. اكتفاء هو في الحقيقة نوع من القناعة لا يملكها إلا المتواضعون.

هكذا قالت سهير عندما خاطبتني بجدية أول مرة: "خذ بالك! تواضعك هذا، يمكن أن أراه أنا كبرياء!"

تصوروا! كبرياء؟

أتراها لم تلاحظ يومها، وغسان يعرّف أحدنا بالآخر، كيف اضطربت في هوضي فأوشكت أن أقع، وكيف سقطتْ أوراقي عن التربيزة وسيجارتي عن المنفضة؟ حتى بنطلوني، خشيت عليه فأسرعت أشد عليه بمرفقي يثبت على خاصرتي المنكمشتين، متظاهراً أنني أستعيد توازني.

يومها كنت قد بدأت صعودي. كنت في السابعة والعشرين. كل ما يهمني ما يزال أمامي. لا شيء على الإطلاق مرمي وراء ظهري. عندما أحمل السيجارة بين إصبعي الوسطى والسبابة، أو عندما أنفض رمادها في المنفضة، يروح عالم بأكمله يمور ويتوهج بين عيني والدخان.

إلا أن مشاعر العشق لا تعبأ كثيراً بإيقاعات الحياة. أنا خلقت هكذا. لحظة تصافح عيناي وجهاً حبيباً، لحظة يطل الجمال بقوته وعلوه، أتذكر ارضي الوطيئة. يشتد علي الحب والجمال، بما فيهما من قوة وأسر، فألتفت شطر ارضي باحثاً فيها عن المياه. لكنني عندما التقي بغسان في النقابة، أو بسليم حول طاولة النرد، أجدني في سباق محموم للمسافات الفوقية.

عندما التقيت بسهير أول مرة خَفَتَ ذلك العنفوان وانسحب مني..

ماذا بحق هذه السماء العكرة الصافرة جعلني أتذكرها؟ وكيف يمكن أن أصف مشهداً يتيماً غابراً، مدته ست أو سبع دقائق صار وراء ظهري منذ ثلاثة وعشرين عاماً؟ أصلاً، هي من أية مدينة جاءت؟ من أية بلاد؟ من هي؟ من هم أهلها وأصدقاؤها؟ ومن هو صفوان هذا، الذي أخذ من حديثها نصفه فبدا وكأنه ليس زوجاً وحسب وإنما إله؟

وأنا؟ ماذا أردت منها؟ امرأة بهذه العذوبة المهلكة، جمال بهذا الجبروت، حضور بهذا الطغيان.. كيف بوسع سنجاب أن يواجه حدأة؟ ما إن أطلت حتى أحسست بأرضي الوطيئة. انكمشت على ترابها الرسوبي وجعلت أوراقي ترساً. كانت هناك مسافة عشرة أمتار تقريباً بين مدخل المنتدى والزاوية التي انتبذتها طلباً للعزلة. رأيتها تقبل، تقبل.. أحسست بها، تقبل،موجة بعد موجة، أمواجاً، تقبل على الهدا.. وأنا أتجمع، تجمع، داخل روعي، حتى صاح غسان: "غير معقول أنك لم تتأثر بجمال سهير! قم يا عزيزي سلم عليها!"

عرفت أن غساناً يريدها. وعرفت أن وجهها المشرق وابتسامتها التي لم تتعب، إنما هما تعبير عن غبطتها بالبلّسم الذي يقدمه لنرجسيتها..

نهضت، نهض جسمي، لكن كل شيء آخر سقط: التربيزة، الأوراق، الكتاب، فنجان القهوة، السيجارة، وطبعاً: لغتي وجناني وصعودي وعنفواني. وكانت هي.

قال غسان غامزاً: "ترين يا سهير كم هو متواضع الدكتور هشام."

قالت هي لي: " متواضع، هذا شيء حلو. لكن لا تخلّه يعني أنك منعزل عن الناس."

وقفنا هكذا ثواني ليست كثيرة. يدانا متشابكتان في فعل المصافحة. ذراعها المنساب العاري، تدخله صبوتي في فعل المصافحة. كتفاها أمام كتفي. صدرها أمام صدري. عيناها عالم وعيناي ارتحال. وابتسامتها أمام.. كيف كان تعبير وجهي في تلك الثواني قبل ثلاثة وعشرين عاماً؟ كيف كان وجهي؟ كم بقي من ذلك الوجه الآن؟ وشعرها بستان من السحب الشفقية أمام تراب كالبحر يترقب المطر. وقامتها.. كيف كانت قامتها؟ ليس بوسعك أبداً أن ترى زوبعة ترفعها روائح التراب والمطر ولا عنف فيها.

لماذا الوصف؟ لكل امرأة شكل يثير إحساساً ما في الرجل. يغيب الشكل فيغيب الإحساس. انتهينا. الأهم كان هي، هي بالذات، هذه الكائن، هذه الكيان، تلك اللغة التي انكتبت بحبر سري على ابتسامتها الدائمة وعينيها القاريّتين. أعتقد أنه في تلك الثواني (كم كانت يا ترى؟ ربع دقيقة؟ نصف دقيقة؟) التي مضت علينا ونحن في فعل المصافحة، تم أسرع تبادل للرسائل في بريد العالم.

ثم مضت. بعد ست أو سبع دقائق، مضت. بعد المصافحة وقفنا نحن الثلاثة نتحدث. قلت لها إني بالطبع مغرور كبير، وإني ملك الكبرياء. وإني إذا لم أجد أحداً أتكبّر عليه تكبّرت على حالي. وبسبب

كبريائي فهي لن تحلم يوماً ومهما كان الظروف بأن تراني أدخل محراب جمالها لأتعبد فيه. وقالت هي إن صفواناً يراها مسافرة زادها الخيال، ولذلك فهي لا تملك محراباً يصلى فيه. وشكراً لصفوان الذي لولاه لتشتت في العالم. إنه مرفأ روحها الهائمة. وقد أقام لجل خيالها مزرعة شمال المدينة، وسورها بحيطان عالية من السرو والياسمين وزهر العسل لكي لا تتقمص شخصية عباس بن فرناس. وإنه..

ثم قرر غسان أن الوقت المخصص لكي تطلع سهير عليّ قد انتهى. دعاها للخروج. خرجا. لم تصافح هذه المرة. لم تقف عيناها أمام عيني سوى ثواني خاطفة. قالت: وداعاً. وكان وداعها ذا معنى توكيدي رهيب غير ما كأنه وداع لسانها وشفتيها.

بقيت وحدي. طأطأت. أعدت التربيزة إلى وضعها السوي، والأوراق والكتاب. للأمانة، ظللت أحلم . لقد أعدت ترتيب ما حولي لكي لا أتبدد في الحلم، ولكي أظل محتفظاً بواقعي. لكنني عدت واستسلمت للحلم. في الحلم كل شيء يختلف، كل شيء يحلو ويعذب، لأنك لست مطالباً فيه بالحقيقة. ظللت أحلم: وجهها هو الصور، وحبها هو الأمنيات. لم تكن حاضرة، فلم أستهول فكرة أن تحب امرأة مثلها رجلاً مثلي. ذهبت. ترك لمع حبال خيالي على غاربها.

ثم أخذ الحلم حقه فانكفأ، وعدت أنا إلى أرضي الوطيئة.

ست سنوات مضت بعد تلك الدقائق الست. ليس فقط أني لم ألتق بسهير، بل و لم اسمع أحداً يقول عنها كلمة واحدة، ولا التقيت بأحد يعرفها. كن أحس أنها موجودة حولي،في واحد من العوالم الشاسعة التي لا تلتقي ولكن تضمها المدينة. ورب صدفة سعيدة تهل وتجمعنا بكل سهولة: كتفاها أمام كتفي، صدرها أمام صدري، وجهها أمام وجهي، عيناها عالم وعيناي ارتحال..

بدلاً من الصدفة السعيدة، أخذت الصور تخبو وتضمحل - صور تلك الثواني وتلك الدقائق، ذلك الاضطراب الخفيف الخفيف ولكن الشبيه ببدايات هزة أرضية. ذلك كله أمسى ظلالاً باهتة يراها الحنين أكثر مما تراها العين. وأخيراً اختفت بالمرة. مثل هذا كثير، قلت لنفسي. إنه يحدث لكل رجل مع كل امرأة ذات نكهة خاصة. ولكل امرأة في الحقيقة نكهة خاصة. وهي نتاج الصبوة لانتاج شيء آخر.

وبعدئذ، من أنا لكي أتنطع لغسانها هذا وصفوانها ذاك؟

اختفت الصور أوائل الربيع. ورحت أتساءل: أين هي الآن تلك المرأة الجميلة التي اختفت حقاً لأني ببساطة لم أصدق أنها يمكن أن توجد؟ وماذا قال كل منا للآخر في تلك الثواني المؤبدة الجامحة؟

تلك اللغة اختفت أيضا. ألم يقل أحد ما أن الزمن قدر، أو ممحاة؟

ثم عدت لا أتساءل. رحت اصعد في جوزاء الحياة. وبعد سنين صرت مواطناً خطيراً. صرت صديقاً لوزراء ومليونيرية وضباط وأعيان وقوادين.. أسعدهم أن يبعثوا بزوجاتهم إلى عيادتي - زوجات كانت أجهزة أبدانهن وأعصاب أحواضهن عليلة بسبب أمراض أرواحهن.

لم أكترث كثيراً لتلك النساء. حقيقة، إن خطورتي المكتسبة كانت عبئاً على قلبي. لذلك جعلت عيادتي مفتوحة لأبناء الأراضي المنخفضة كل الوقت، وبأي أجر أمكنهم أن يدفعوه ـــ ليس لأي موقف إنساني وإنما رأفة بنفسي.

لكن قصتي مع هؤلاء النساء غريبة حقاً. وقد بدأت منذ بداية ممارستي لتخصصي قبل سنتين، يوم جاءتني زوجة مسؤول خطير إلى العيادة. كانت جميلة كالعادة في هذه الزوجات، وشهية على غير العادة. ولم تكن قد تلظلظت بعد بحيث تحمل معها أينما تحركت عشرين كيلو غراماً زيادة وزن. لكن لباقتها الاجتماعية المطلقة جعلتها تبدو مثل تمثال

من الكلس. قالت لي: "افحصني يادكتور. أنا تصيبني نوبات أعض فيها ذراعي وأضرب الحائط حتى أهدمه."

فحصتها مثنى وثلاث. ثم قلت لها: "أعطيني الأمان من زوجك، حتى أصف لك الدواء الناجع."

ابتسمت بدلال خفيف وغبطة: " عليك الأمان."

قلت لها: "الحقيقة يامدام، دواؤك موجود في صيدلية اسمها: الشوارع. تمشي في الشوارع. كلي قُمع بوظة وأنت ماشية. وتخففي من هؤلاء المرافقين الثلاثة الذي يحتلون مقاعد صالة الانتظار. روحي إلى سوق الخضار، مثلاً. إلى سوق البالة. يعني!"

من العيادة كنت أخرج إلى الشوارع، لأطبق العلاج على نفسي. ومن هناك أصل إلى مكتبي في النقابة. أغلق الباب ورائي واسترخي بجوار النافذة المطلة على الحديقة العامة. بعض الناس يكتسبون عافية نفسية مدهشة عندما يصيرون مواطنين خطيرين. وبعضهم تتلبسهم الكآبة والاستهزاء. وأنا من النوع الثاني. كنت قد بتّ أعرف أن هؤلاء الذين أرضهم فوق، مثل زوج تلك السيدة الخطير، لا يفعلون شيئاً سوى حفر الآبار في أرضنا، نحن الذين نكره أن نصطرع مع الآخرين على الماء.

وهكذا فبعد ست سنين رأيت سهير مرة ثانية. في الوقت نفسه من النهار، تقريباً. وفي المكان نفسه. لكن التربيزة لم تقع هذه المرة، ولا الأوراق والكتب وفنجان القهوة والسيجارة - ولا صينية الشطائر والعصير التي كنت أحملها من مطبخ المنتدى إلى إحدى الطاولات.

قالت: "كنت أقول لغسان، إنك لن تتذكرني بعد ست سنوات وشهرين. الإنسان ينسى ألف حادث من هذا النوع. لأن لقاءنا يومها كان بشق النفس قطرتين أو ثلاثة في بحر حياتك.."

وقال غسان: "وأنا خالفتها الرأي طبعاً. إعطاء قطرات ماء هو العطاء. هذا التفضل والتنازل من الجمال هو أروع ما تجود به الطبيعة. هذه العلياء، دنت منك أنت، ولو ببضع قطرات! شيء رائع!"

كان غسان ما يزال يريدها. إنه لشيء يثير الإشفاق. غير أنه مع ذلك يثير مثقالاً من الإعجاب - هذا التشبث العنيد المديد طوال ست سنوات بالوصول إلى امرأة مستحيلة!

كيف تصافحنا هذه المرة؟ أغلب الظن أن كل شيء قد تكرر: يدها في يدي، كتفاها أمام كتفي، صدرها أمام صدري، وجهها أمام وجهي.. وتدويرتا كتفيها أقرب قليلاً إلى الأمام، كأن يدين قويتين تشدان عليهما برفق.. وغزارة غير معقولة في الكلام:

" ألا ترى غسان رائعاً وعظيماً؟ أنا أهنئ زوجته عليه. إذا لم يكن معك وقت لاستقبالنا.."

"..

"فأنا جئت أبلغك أن صفوان يحب أن يزورك. يتمنى كثيراً أن يتعرف عليك. أنا قلت لصفوان: لا أظن الدكتور هشام يحب صيد الطيور، فلا تتعب نفسك بدعوته إلى المزرعة. لكن صفوان هو صفوان. لا يحب أن ينقص شيء من حياته.."

"..

"يريد أن يتعرف عليك، يعني سيتعرف عليك. حتى ولو لم تحب صيد الطيور. صفوان وغسان.. أنا عندي حل وسط.. يحملان بارودتيهما.."

" أنا عندي مكتب في النقابة، وعندي بيت، وأهلاً.."

" أنا قلت لك يا غسان، أم قلت لك؟ قلت لك: خذ بالك! التواضع يمكن أن يكون كبرياء. طبيب، دكتور هشام! يمكن يسعدنا الحظ، أنا وصفوان، ونشوفك في المستقبل."

توقفت تماماً عن الكلام. طول الوقت كانت تبتسم، ولكن دون أن تبان أسنانـــها إلا لأجل الكلام. بدت أقل جمالاً، وأكثر إنسانية ومحبـة. مدت أصابعها الطويلة للوداع. اختفت مرة أخرى.

لبثت جامداً برهة. ثم انتبهت إلى أن كل من في المنتـــدى مســلط نظرته علي، ولا بد. كان يجب أن أتظاهر بتفكير عميق، لا أثــــر فيــه للانفعال. مشيت بصينيتي إلى طاولة نائية، وحافظت علـــى انشـــغالي الهادئ. كان ضرورياً أيضاً أن آكل شطائري وأشرب عصيري، لكــــي أبعد الشبهة عن وجهي.

ماذا حدث لي في تلك الظهيرة؟ ماذا حدث لي في ذلـــك اليـــوم؟ طبعاً، لم تقف اللقمة في حلقي، ولم يستعص علـــي شــرب العصــير. بالعكس. رأيتني أقبل على طعامي بنهم عله يريحني من أحاسيس الـــذل والصغار التي هبطت على جوانحي.

بعدها عدت إلى البيت وبقيت هناك. لأول مرة منذ سبعة وعشرين شهراً لا اذهب مساءً إلى عيادتي. كان تراب أرضـــي الوطيئـــة يـــدوم وينتفض في الفضاء مثلما ينتفض هذا الرمل أمامي الآن.

ست سنوات أيها الإنسان، ولم تعرف أنك أحببتها! كيف؟ أيـــن هدي قلبك؟ ماذا يهم، أكان وقتكما دقائق أو عصوراً؟ إذا لم تعن لـــك نبضات القلب شيئاً، وأنت الطبيب، أفلم ينبض وجدانك بشـــيء لـــه معنى؟ قبل ست سنوات قلت لنفسك: مثل هذا كثير؛ فهل حدث لـــك مرة أخرى؟

ضربت قبضتي على الطاولة. نهضت نصف نهوض، واستندت علـــى راحتيّ. أنا لست ممن يتحملون التأنيب الذاتي، فأنا أساسا على القـــاع، ولا مكان أتراجع إليه أثناء الندم. ولست نبياً لأعي أن ست دقائق يمكـــن أن تكون الحياة.

أمضيت النـــهار التالي خارج نفسي. رأيتني أكره نفســـي وأبعـــد عنـــها. في العيادة، كما في النقابة. وبعد أن أتيـــت علـــى شـــطائري وعصيري، رأيت أن المكتب خير لراحة عقلي من البيت. قـــرب بـــاب المكتب رأيتها، عند أعلى الدرج - بعيدة عن الباب بما يكفي للإعتقـــاد بأنـــها تنتظر غساناً مثلاً، أو صفواناً، ربما، أو أي إنسان سواي؛ وقريبة منه بحيث لن يصعب عليها الدخول إذا دعوهّا.

ابتسمت، وافترت شفتاها، وبان أسنانـــها. أمـــالت رأســـها إلى اليمين كبنت تتشيطن، دون أن تفقد ملامحها تعبير الانتظار ذاك.

وقفت أمام بابي مبتسماً بكرم ضيافة. كان لا بد من شـــيء مـــن الغربة، وربما اللامبالاة أيضاً، فكل ما أقض مضجعي أمس قد يكـــون غائباً تماماً عن قدراهّا. فتحت الباب، وأبقيت يدي ممدودة تجاهه تدعوها إلى الدخول.

أقبلت. الابتسامة نفسها. الوجه والصدر والكتفـــان والأنـــف - تنساب وتستدير حتى يصير الظهر أمامي. "ما دمـــت لا تحـــب صيـــد العصافير!" قالت تفسر لي سبب اطمئنانـــها إلى الدخول.

"هذا لا يعني أني لا أحب العصافير ذاهّا."

" أنا أحب تشيخوف. وشقيقاته، الثلاث. أنت مثله أديب وطبيـــب ياترى؟" يجب أن أضعها وهي تدخل، وهي تجلس على الكنبة الجلديـــة السوداء. فمثل هذا الكيان فرح وحلم، حتى للذين يرونه عبر الكلمات. لكني لن افعل. سيجعلني الوصف مثل هذا الرمل العاصف في الفضـــاء. ليس لأنـــها فيها جمال الآلهة، وإنما لأنـــها كانت آلهة للحب. أنـــا لم أجرؤ يومها حتى أن أبعث بنظرتي إليها. ولهذا التفت إلى الهاتف المحلـــي، وبمرح صاحب طلبت من عم عبده فنجاني قهوة على الريحة.

" افترضت أنك تحبينـــها على الريحة، قلت وأنا ما أزال لا أراهـــا. وكنت آمناً في تلك اللحظة: لقد جلست وراء طاولتي.

لم ترد هي. ظلت ابتسامتها ستارة. نهضت إلى الشباك ونظرت منه إلى حديقة أبي العلاء. أنا لم أنهض. ما إن أدارت ظهرها حتى ارتحلت في قامتها وأسلمت نفسي لإيمان شبه ديني أنني أحبها. ورحت أتقطر ابتهالاً لوجودها.

التفتت وقد كبرت ابتسامتها. حتى أسنانها انفرجت. لكنها كانت ابتسامة مودعة. "هشام" قالت، فصرت عموداً من البرق. "لا تسأل ولا نصف ربع سؤال. اشرب عني فنجان قهوتي بكل محبة. أنا ماشية..

لوحت بأصابعها أمام ابتسامتها، وخرجت.

أما كان يمكن أن تنتهي القصة يومها؟

لماذا عدت في اليوم التالي أيتها النجمة المسافرة؟ لماذا عدت؟ وبالطريقة نفسها؟ وجلست علي الكنبة السوداء: "أين فنجان قهوتي؟ كنت عارفة أنك ستشربه. طبعاً. الأرض الوطيئة تشرب قهوتها وقهوة غيرها. تعرف؟ لو تركته هنا على الطاولة، وغطيته بالصفحة، حتى اليوم، كنت شربته."

كانت لغتك مازحة، لكن صوتك ووجهك أيضاً، ألبساها مسحة من الحزن لا بل من التعب. بل، ربما من الحزن والتعب معاً. كأنك لم تنامي نوماً كافياً الليلة الفائتة، مثلاً. أو كأنك أضعت مسودة قصيدة..

كنت تقولين: "صفوان يسلم عليك ويقول لك إنك واحد يللطيف اللطف ما أبخلك. نفت أن تقبل دعوته فتضطر إلى دعوتنا بالمقابل. لكنه متنازل عن دعوتك لنا: يقول لك."

رفعت اللغة المختالة رأسها من جديد. وإذن فصفوان يعرف أنك هنا. وإذن فزيارتك عادية تماماً، وعليّ ألا استنبط منها ماهو زائد عن ذلك. وكل هذا الحديث المستمر عنه يعني أنه لم يتزحزح عن مركز العرش.

تداعت دقائق الزيارة الثالثة.

في اليوم كنت أنتظر مجيئك متوتراً. وقد جئت . كان فنجاناً القهوة جاهزين، مغطيين بصحفتيهما. دخولك هو نفسه. نسيم قامتك نفسه. وابتسامتك. ومزيد من الإلفة والارتباط في عينيك المطمئنتين. هذه المرة بادرتك أنا بالكلام: "هل جئت بصفوان معك؟ أم جئت وحدك؟"

ابتسمت ووجهك بوجه فنجان القهوة ويدك تهم بتناوله. قلت بهدوء متعابث: "صفوان ليس أبداً معي يا عزيزي هشام. إن تعرف. لا أحد مع أحد."

ثم نظرت إلي بشيء من الارتياع والجمود. توقفت حركة يدك المقتربة بالفنجان من شفتيك. أيقنت أنك قلت أكثر مما ينبغي فحاولت الاستدراك، وطلب وجهك في أن تكون الكلمات فاتت مسمعي.

لكنها لم تكن فاتت مسمعي. بدأت ترشفين القهوة بصمت، وتنظرين باتجاه النافذة. ثم وضعت الفنجان على التربيزة ونهضت نحو النافذة. نظرت إلى ذلك الفضاء. كنت متكئاً بمرفقي على الطاولة، شابكاً أصابعي أمام فمي الأبكم. مرة أخرى أطلّت قامتك هناك. أنا لا قدرة لي. لا أتحمل. أحب ماء المطر، لكن السيول تخنقني.

نهضت من مكمني. أغلقت باب الغرفة وأقفلت مزلاجه. وجئت إليك. لم تلتفتي. صار كتفي وراء كتفك، وصدرك وراء ظهرك، وفمي وراء شعرك. التفتِّ. مددتِ ذراعيك ببطء فوق ذراعي، وببطء أغمضت عينيك، ثم ألصقتَ خدك بخدي.

عرّشت يداي على قامتك. هممت أبعدك عن الشباك، لئلا يراك أحد في الحديقة، فرفضت قامتك أن تتحرك. وصرنا، نحن الاثنين، واحداً أمام الفضاء.

انتظرتك في اليوم الخامس؛ وجئتِ. كان انتظاراً فظيعاً. لأنك عندما ابتعدت عن النافذة وخرجت، خرج معك كل شيء. رحت أستعيد ما

حدث كم لو أنه حدث لشخص آخر غيري. كلما أكد عقلي إنه حدث لي بالذات، هبطت علي مسحة من البله والسكون. كأن بركة والسكون. كأن بركة استردت ركودها بعد أن خلخلته حصاة طائشة. طول ذلك النهار، ومدى ذلك الليل، وأنا أقول لنفسي: مستحيل! أوَلَكَ حقاً هذه السطوة على النساء يا سيد هشام؟ هذه العلياء - كما يسميها غسان- أنزلت قدميها الحافيتين على أرضك.

كان في روحي نشيج، وصرخة تطلب توكيداً. لا شك أن تينك الهالتين من الحب والجمال قد انعقدتا فوق رأسنا لأن هناك غلطاً وقع وأخلّ بنظام الطبيعة. كان بوسعك أن تختفي، فأنت اختفيت من قبل. وكان بوسعي أن أقول: مثل هذا يحدث كثيراً؛ واصعد إلى الأعلى خلال ست سنوات جديدة. ففي هذا الزمن، من يسعه أن يصدق شيئاً أو يثق بشيء.

لكنك جئت. بالطريقة نفسها. وجلست على الكنبة السوداء. فتحت جزدانك الشاسع وأخرجت منه جسماً غريباً، فيما أنت تقولين: "اليوم أنا سأسقيك من قهوتي.

عملت لنا نحن الاثنين قهوة خاصة. قهوة سنشرب منها على طول."

راحتاك رفعتا بتؤدة الجسم الغريب أمام عيني. وعيناك عبثتا بنهمي. أية شجرة حملت هذه التفاحة الفلكية؟ وكيف تلونت بهذه الظلال العجيبة المحكمة؟!

لم تكن تفاحة. كانت حجماً من الورق المقوى الصقيل. وبلا ريب فإن مصنعاً خاصاً قد أنشئ لصياغتها.

على تلك الأوان التفاحية المتدرجة رأيت صياغة أخرى. كتابة بخط اليد. أجل. على سطح التفاحة الإهليلجي الشبيه بالكرة الأرضية، رأيت حروفاً، بالخط الكوفي أو ما يشبهه.

تناولت التفاحة من يديك وقد انتقل اهتمامي بالكامل من اللون والحجم إلى اللغة. كان الكتابة تدور على التفاحة الكرة، وترسم ستة مدارات من اللغة وخطاً استوائياً واحداً، تبدأ من مكان ما مثل غرينلاند وتنتهي في أنتارتيكا. إنني أتذكر تلك الكلمات ـــ إن لم يكن بالحرف فبالمعنى المؤكد. لقد كتبتها على التفاحة لكي تنقش بعد القراءة على الذاكرة:

يحدث الزلزال عندما يعجز الماء عن أن يخرج من جوف الأرض ـــ يحدث عندما تكون الأرض كتيمة أو عندما تطوقها أراضي كتيمة ـــ فلا هواء يدخل إليها ولا ماء يخرج منها ـــ هناك أرض مفتتة التراب مفردة الذرات - حاصرتها الأراضي الكتيمة ـــ لا تشرب ولا تسقي - حاصرتها الأراضي الجسيمة.. الخطيرة.. والمزارع ـــ نهر يجب أن يدخل إلى ترابي ـــ يمد جداوله وتياراته ولا يستطيع - ما بال الزلزال لا يحدث - قلت لأرضي اعمل انزياحاً - ليس ضرورياً أن تنبثقي إلى الأعلى لتتنفسي وتدفقي مياهك ـــ انزاحي من هنا - انزاحت ـــ اخترقت صخوراً صماء حواجز شائكة كانت تطوق إحدى جهاتها الثماني ـــ نعم ـــ خرجت إلى فضاء جوفي جديد ـــ هناك انعقدت غيومي فوق رأسي وانعقد معها عشرون قوس قزح - مع ذلك لم استطع أن أمطر سوى قطرات قليلة من هذه الغيوم التي تعج هالاتها في فضائي - قطرات ـــ لا أكثر - يتمنى غيرك لو نزل عليه مسارها - وأنا تمنيت منذ ذلك اليوم الرغيد لو أنها تكون فاتحة الغيث - عرفت أنه الحب منذ ذلك اليوم البعيد - عرفت أنه لا مفر منه ـــ مهما كابرت - هذه خلجات لا تخفى على الروح - أتيت الفاتحة للعذاب وفاتحة للأغاني - أتيت ولا أعرف الآن من أين أعرف أنك كنت معي كل آن..

لأول مرة نتبادل نظرة مباشرة لا التواء فيها. كانت نوعاً من التوقيع بالأعين على اعتراف متبادل. وإذن فهذه الدقائق غلبت ست سنين. وقبلة البارحة لم تكن فورة في الجسد وانتهينا، وإنما فورة في الروح.

كنا سعيدين. وكنا حزينين أيضا. وخائفين قليلاً ومتعبين. كأننا مشينا ست سنوات، همنا، أو كأننا عطشنا ست سنوات ولم نشرب الماء إلا خلال دقائق.

يا للفزع!

قلت لها بوجل مستتر: "من الآن فصاعداً سنبقى معاً." لم أجرؤ على الكلام الكبير ولا على المواثيق الكبيرة. طيلة الوقت رحت أنظر إليها وفي نفسي تدور ناعورة سؤال مستحيل: أهو حقاً الحب؟ هذا المدارات الستة على التفاحة، إذا امتلأت بهذا الحب كله وهذه اللغة، أيظل خط الاستواء مستوياً؟ قلت لها:" مثل هذا لا يحدث إلا مرة واحدة في العمر." وقلت لنفسي: لماذا لا يكون الذي في قلبي واحداً من أسماء الحب؟

كانت سهير ما تزال تبتسم. هي لم تتوقف عن الابتسام. وأسنانها الصغيرة النضيدة تلمع في العتم. "أعطني التفاحة" قالت، ومدت يدها فأخذتها.

"ظننت أنها ستبقى معي،" قلت بنبرة مالك متسامح محب، وقد بدأت أحس بالتعب.

كانت قد وضعتها في الجزدان الشاسع. هزت رأسها بتشيطن هادئ؟: "هذه تفاحتي!" لم أحتجّ. لم أطلب إليها أن تبقى. مادام فراقنا سيكون من الآن فصاعداً هو الاستثناء ولقاءنا هو القاعدة، فلتمض قليلاً إلى المعالم الذي خرجت منه.

نهضت. علقت جزدانها بكتفها ومدت أصابعها الطويلة للوداع: "المفروض أن أكون في البيت من نصف ساعة."

"ولكن أنت لم تقعدي هنا نصف ساعة! إنما أملي في لقائنا القادم."

أحسست أنني أغرق وأطير: هذا كله، كله، حدث لي. وهو فيضان. هذه الأمومة الأرضية.. هذه القامة الربانية.. هذا النهر.. كان

أرحم ما يمكن أن تفعله هو أن تغيب بسرعة لكي أعود إلى شيء من الواقع. قد تطلب الانتقال الصاعق من الخلاء إلى الامتلاء قوة لم أمتلكها.

تصافحنا واقفين وبلا حراك. دخلنا في دارة المصافحة. صرنا فقط تينك الراحتين اللتين تتلاصقان وتنشدان. وأيضا ابتسامة عميقة تجدد الاعتراف وتكتب عهداً. كان اليوم السادس يوم جمعة.

انتظرتها اليوم السابع. انتظرت وظللت أنتظر. انتظرتها الأسبوع السابع. والسنة السابعة..

رأيت غسان في السنة الأولى - وحده. عاتبني عتابا شديداً: "أنت غير معقول أبداً. صفوان يطلب صحبتك. وفي أي وقت، بيته مفتوح لك. اليوم، وبعد سنة."

علمت على الأقل أنها في المدينة - في واحد من عوالم المدينة.

ثم لم أر غسان بعد ذلك. وقيل لي إنه استقر في مدينة أخرى. وبعدها أخذت الصور تخبو وتضمحل. مثل هذا ليس كثيراً، قلت لنفسي. لكنه يحدث ثم يغيب. ما دامت لم تعد، فتلك الدقائق التي جمعتنا كانت نزوة إيطالية. هل أصدق الدقائق وأكذب السنين؟

بدأت الصور تتشظى. وأهم من هذا: بدأ الاعتراف يتشظى. والعهد. كان ضربات الغضب والقهر أقوى من رنين الاعتراف والعهد. وأيضاً ضربات الاستخفاف واللامبالاة.

وأقوى منها كان ضربات الحياة اليومية، بل حبالها التي تلتف وتلتف.

أيوجد يا ترى في هذا العالم ناس يقولون للحياة اليومية: قفي! ويتركون كل شيء ويندفعون لاسترداد بضع دقائق؟ أنا لم أقف ولم استوقف ولم أفعل شيئاً. حتى أني لم أعد أنتظر. بعد ذلك اليوم الخامس،

مضى سبعة شعر عاماً ومضى الانتظار. أنا أعرف منذ زمـــن بعيـــد أن الحياة لا تحوّل مجرى أنـــهارها لتصب في أرضي.

سهير يا ساهرة، أي أن الآن؟ تحت أية غيمة مشيت، أيـــة شمـــس ونجوم؟ تحت أي مطر وأي برق ورعد؟ أأنت مازلت على قيد الحياة يـــا ترى؟ من أي نبع تشربين ومن أي خبز تأكلين؟ فوق أي شارع تمشـــين وأي عشب وأي تراب وماء؟ أمام أي كتف تقفين، وأي جـــدار وأي فضاء؟

الكويت ١٩/١٠/١٩٩١

خضراء كالعلقم - سمسمة

- ١ -

حللت بتلك الجزيرة فقط لكي أستقر في مكان آخر، وأبتعد بقدر الإمكان عن أمي التي لا تتعب من تكرار موضوعها اليومي: أنت بكرنا، أنك والمرحوم والدك، صار عمرك أربعين سنة و لم تتزوج...

وهكذا وقعت عقداً مع وزارة السياحة للعمل في الجزيرة مدة أربع سنوات فكأنني أنا الذي خبت مع عشرين امرأة على الأقل، ذهبت إلى هناك لألتقي بسمسمة.

كانت الجزيرة عالماً متكاملاً قائماً بذاته: شيراتون ومريديان إلى جانب أقواس الإسكندر الكبير ومعابد بعل وشمش وبيوت عناتو تحت الأرض؛ الوسكي والبيرة والفودكا في مقاصف الجزيرة، إلى جانب النبع المقدس الذي نهل منه الإله حدد في شمالها. وبعدها ذلك الشارع المستقيم كالمسطرة بين صفين من أقواس النصر الغابرة، ومزيد من الأعمدة والقواعد الرخامية، وعلى مقربة منها الشوارع المزدوجة التي تتسع لثماني سيارات.

في الموسم الثالث لعملي ظهرت سمسمة. لم يكن شيء ليخرجني من صحبتي الجديدة المغلقة مع حجارة التاريخ الناطقة، والأعمدة المقنطرة،

والمنازل الساميّة المحفورة داخل الأرض. لكن ظهورها جعل ترتيبات حياتي الصارمة تتشابع مع حجارة التاريخ المبعثرة في مواقع الآثار.

أذكر أول مرة رأيتها فيها. كانت الساعة الثامنة إلا ربعاً. المتدربون والمتدربات يدخلون من البوابة المخصصة لهم في سور المعهد المقام بجوار معبد بعل، ثم من فتحات جانبية لحيطان المعهد أفضت إلى باحتين داخليتين فإلى الصفوف.

وصلت أمام باب صفي إذن، وليس في عيني أي فضول لتفحص وجوه الطلبة الذين مررت بهم. كان قد مضى أسبوع على بدء الموسم الثالث. وكنت قد تصفحت تلك الوجوه بإمعان ــ إن أصحابها أحفاد حقيقيون إما لبعل أو عشتار ، فأجسامهم مغطاة بالملابس من قمم رؤوسهم إلى أخامص أقدامهم. وفوق هذا: من يستطيع في هذه الجزيرة الرائعة أن يطيل النظر إلى وجه فتاة أو يتفحص قوامها؟

اقتربت من الباب، وتلكأت في مشيتي ريثما يتفرق جمهور صغير من المتدربات الواقفات أمامه، ورأيت سمسمة. تلكأت أكثر. وأظهرت أقصى درجات تأدبي ومراعاتي للأخلاق العامة. فالوجه الذي طالعني كان بالتأكيد من نسل أفروديت.

يومها تساءلت مستغرباً: ماذا كان لون عينيّ أفروديت، فعلاً؟ ورأيت كم هو سخيف حقاً أن يجتمع في رأسي كل تلك المعلومات المفصلة عن الحضارات التي التقت هنا، دون أن أعرف ماذا كان لون عيني أفروديت.

كانت البنت تبتسم. أثبتت عينيها بوجهي، وهي تتراجع مع رفيقتين لها، فكأنها تطلب الأمان ريثما تبتعد بالتي هي أحسن عن بعبع ظهر فجأة أمامها.

وقفت أمام باب صفي لتدخل جماعتي من المتدربين. وبين الفينة والفينة راقبت عبورها الساحة إلى الكتلة المقابلة من البناء.

وفيما أتفقد الحضور من المتدربين عندي، أحسست كم هو ثقيل ومحبط أن يكون المرء معلماً وهذه البنت متدربة في عهدته. ذلك أنه إذا ما انجرف مع إغراء الحب فسيجد مدينة بأكملها تقف ضده، وتراثاً من المنع والمحرمات يجرّمه في طول الجزيرة وعرضها.

ثم مضينا إلى الباص خارج الأسوار وانطلقنا إلى موقع التنقيبات: المتدربون في الخلف والمتدربات في الأمام.

كان وجه سمسمة برونزياً فاتحاً، وشعرها برونزياً غامقاً، وعيناها زرقاوين. فكيف يمكن لواحد من نسل عطيل أن ينساها؟ كل ذلك الأسبوع مضى وأنا أتحايل على مهابتي لأرسل نحو وجهها نظرة غير قابلة للتأويل. وفي آخر الأسبوع الثاني تأكدت من ملمح في خديها وذقنها، لا أدري إذا كان بذاته مثار أسف على الجمال أو مدعاة لفرح إضافي — ذلك هو آثار حب الشباب. من بعيد بدا الأمر مجرد نمش على طريقة العرق الأبيض، كأن اللون لم يوزع بالتساوي على البشرة فتجاور فيه الغامق والفاتح بشكل يمكن أن يعتبر فاتناً بسهولة. ولكن عندما يكتشف المرء أن اللون الغامق هو في الحقيقة تجويف صغير بحجم رأس الإبرة...ماذا يمكن أن يحس ويشعر يا ترى؟

فيما بعد عرفت أن الجمال عادة. اكتشفت هذا عندما اعتدت أن أحب وجه سمسمة. إن جئتم للحق، الوجه الإنساني نموذج فريد للإضطراب والفوضى. تشكلاته لا يحكمها ولا يربط بينها أي ناظم جمالي. ومع ذلك فنحن نراه منذ آلاف السنين جميلاً وساحراً، وينبوعاً للشعر والوجد. تصوروا هذه الفتحة الأفقية المثقلة باللحم، التي نسميها الفم والتي تشقه في ذلك المكان الاعتباطي! أو هذا النتوء الفظيع الذي نسميه الذقن، وهذه الإستطالة الخارجة على كل حس بالشكل والاتساق، التي نسميها الأنف. ثم تصوروا كم سيتحسن شكل الرأس لو لم تكن هناك الفزاعتان اللتان نسميهما الأذنين.

هذا ما قلته لنفسي، بينما سمسمة تقف أمامي وتسمعني اعتذارها الغريب المربك عن عدم استطاعتها الإنضمام إلى فرقتي هذا الموسم. كان اللون يرتعش في وجهها وعيناها تغصان بنورهما. أما ستّاها المفركشتان فقد أعطتا انطباعة عن بنت يمكنها أن تخرمش.

كان يجب ألا أنظر إلى وجهها. هكذا الأصول في هذه الجزيرة. المرأة هي التي تتكلم وتتحرك وتنظر، وعلى الرجل أن ينصت مطرقاً (ليظهر اهتماماً أكثر) أو ناظراً إلى مكان بعيد (ليظهر تعففاً أعمق). لكني نظرت. وإذا ذاك أشاحت هي جانباً، دون أن يضطرب حديثها. كانت رغبتي هي أن أتفرس في الوجه ما دامت هي تتكلم، وليس أن أبعد عيني بحسب الأصول. وللحظات ركبت رأسي وأمعنت التحديق في وجهها وعينيها وشفتيها. غير أنني سرعان ما ذعرت من قيامة ما يمكن أن تقوم، خاصة وأن حولي سوراً من المتدربين والمتدربات، حولهم سور من حيطان المعهد، حوله أسوار وأسوار غبر المدينة والجزيرة، والعالم المغلول بأسره.

أطرقتُ، وأنصتُّ.

كنت أعرف أن ما فعلته سيء خطر. حاوله قبلي شاب، ليس مثلي وإنما في ريعان الشباب. وعندما تكلمت المتدربة خمس كلمات عن تحرشه بها، اقتيد كالكلب إلى سجن الجزيرة، ورمي هناك كبطيخة فاسدة ثم نسي.

أنساني الذعر وجه سمسمة. أكان ضرورياً أن أسبح في ضوء عينيها الأزرق؟ بعد أن دخلت الصف وكان عندي يومها محاضرة نظرية صار همي الوحيد استقراء العيون لأعرف من منها ترسل نظرة اتهام أو ارتياب أو غضب.

عبثاً، طبعاً. كان أمامي رتل من العيون الخرساء والوجوه الكتيمة، التي تستدرجني بصمتها إلى مزيد من ارتكاب الحرية. وهذه الأردية السوداء أو البيضاء المنسدلة على أجسامهم، أشبه بتعاويذ فضفاضة تقيهم شر التعبير عن

أنفسهم. حتى الذين يلبسون ملابس عصرية، لن يترددوا لحظة واحدة في حمل السكين إذا اكتشفوا أنني أكثر حرية منهم.

نمت مع الخوف ذلك الليل. لكني نمت. بل واستحضرت صورة أمي فأثبتّها في الفضاء وقلت لها: بالله عليك، أكان ضرورياً إلحاحك الفظيع علي بالزواج؟ ألا يكفيك هؤلاء السعادين إخوتي، الذين غادرهم السيد الوالد دون سابق إنذار؟

لكن المشهد تكرر: كل ثامنة إلا ربعاً من الصباح ألتقي بذلك الجمهور الصغير بوجهي وهي تتراجع مع رفيقتين لها، وكأنها تطلب الأمان لتبتعد عني إلى كتلة البناء المقابلة.

ليس غريباً أن تتطلع نحوي بتلك الطريقة. كل المتدربات فعلن ذلك مع مدربيهن وأساتذتهن. ذلك واحد من حقوق المرأة أن تتهاون في ممارستها. وويل، ويل! للرجل الذي يظن أن فعل الحرية ذاك يعنيه شخصياً، ويمكن أن يقابل بفعل حرية مماثل. إنه مجرد تعبير عن ثقة المرأة المطلقة بأن الرجل الذي تنظر إليه وتبتسم بوجهه يستحيل أن يبغي منها أي شيء طبيعي يبغيه الرجل عادة من المرأة. وعلى الرجل أن يثبت بلا انقطاع هذه الثقة بما يضعه على وجهه من تجهم متعال وجمود فظيع.

وضعت ذلك التجهم والجمود على وجهي في الأسبوع الخامس. وسرعان ما اكتشفت أني عاجز تماماً عن أن أكون شارلي شابلن. فعندما رأتني سمسمة في تلك الثامنة إلا ربعاً أوشكت ضحكة مسموعة أن تفلت من فمها، بدل ابتسامة الثقة تلك. وخلافاً للعادة اليومية، أطالت وقوفها مع زميلاتها فأطالت انتظاري أكثر من مرة انتبهتُ إلى أن تلك الضحكة الخبيثة توشك على الإنفلات ثم ما تلبث أن ترتد بإرادة أخبث.

احتفظت طول ذلك النهار بسيماء وجهي الكئيبة. فوحدة المظهر والسلوك ضرورية جداً للمحافظة على الثقة. سألتني متدربة متلفعة بالأسود إن كنت أشكو شيئاً، فازددت كآبة وأنا أشير باستخفاف إلى إصابتي

باضطراب معوي خفيف. كان السؤال الحقيقي في ملامحها وليس على لسانها. هو لم يكن سؤالاً، في الحقيقة. كان ارتياباً وحسب، وتشكيكاً أيضاً.

عند الظهر جلست في غرفة المدرسين. عند النافذة. وجاءتني النادلة بقهوتي كالمعتاد. كانت نظراتها إلي غير معتادة على الإطلاق.

بدأت أشك في أني أصطنع هذه المخاوف اصطناعاً. لم أكن قادراً على الحكم في تلك الآونة المضطربة. وقلت لنفسي، إذا توافدت الشغالات إلى الغرفة، فهذا يعني أن الساعة الثامنة إلا ربعاً قد صارت حديث الأفواه النكراء داخل هذه الأسوار. هناك الكثير مما يمكن أن يفعلنه في الغرفة كل عشر دقائق أو ربع ساعة. فسلة المهملات يمكن استبدالها رغم نظافتها. ونفاضة السجائر كذلك. وفي أي وقت، هناك احتمال الدخول إلى بيت الماء المتصل بالغرفة لتنظيفه. وإلا فكيف يطمئن مسؤولو وزارة السياحة إلى أن هذه الأسوار داخل الأسوار ليست مخابئ للرذيلة والنساء؟

جلست ساعة كاملة. هدأ روعي. كانت أصوات الشحاطات البلاستيكية تبدأ كل عشر دقائق، ثم تتصاعد في اقترابها من الغرفة، باحتمال متصاعد أن صاحبتها ستدخل، ثم تخف بالتدريج. مرة واحدة فقط دخلت شغالة وغيّرت نفاضات السجائر. هدأ روعي. ليس الخوف فقط من الشرشحة، وإنما أيضاً من عواقب فسخ عقد العمل، الذي يسمح للوزارة بعشرين انتقاماً إضافياً فظيعاً، في حالة إخلالي بمبادئ الشرف.

بقية أيام الأسبوع: شغل متواصل ــ محاضرات نظرية، دراسات ميدانية في مواقع الآثار، زيارات استطلاعية لمواقع التنقيبات.

استعدت توازني الوقور يوم الخميس. وبت مستعداً لقراءة رسالة أخي الملفوت الصغير التي وصلتني ذلك الصباح. كانت رسالة غاضبة وشرسة. لقد مرّ عيد ميلاد الولد دون أن أحضره ــ وهذه مفهومة ــ ودون أن أرسل هدية ــ وهذه غير مفهومة ــ ولا حتى أبعث ببطاقة. وفي المساء

جلست أكتب له: طظ فيك يا ولد يا شادي، أنت وعيد ميلادك! انتظر حتى تتأكد أنك ترحب بمجيئك إلى هذه الدنيا، وبعدئذ احتفل بميلادك المنكود هذا.

قمت بعدئذ إلى الهاتف فحكيت معهن ثم مزقت الرسالة.

— ٢ —

كان ذلك الشتاء أبرد من الشتاء السابق. وقد أحسست شخصياً بهذه البرودة، ربما لأن مشهد الثامنة إلا ربع قد انتهى إلى أن يصير بارداً خامداً، وأن ينثّ برودته على النهار كله. كل ما لا ينمو يذبل. تلك هي طبيعة الحياة، وليس ثمة احتمال آخر. لم يكن لواحد مثلي أن يجد مرضاة عظمى في مجرد تبادل نظرات ذات توتر عال. وفوق هذا فإن شحنة هذه النظرات وغبطتها الشيطانية كانت تتبدد بمجردٍ وصولها إلى خشب لامبالاة سمسمة المطلقة، وابتسامتها المقولبة، وغبطتها الشيطانية بأن تراني بعبعاً ينبغي أن تهرب منه.

في الشهر الأخير من الموسم دخل دفء إيطالي إلى شتاء الجزيرة. كان مديرنا عاشقاً للتكتمات واللولبات. لذلك لم ندر بمجيء البعثة الأثرية الإيطالية إلا قبل عشرين ساعة من هبوطها في المطار. وبالطبع ما كان لهذا العشق أن يضيف سوى القليل إلى الإحباط العام الذي جئت به إلى هذه الجزيرة.

زاغ معظمنا من مهمة الإستقبال الرسمي في المطار، والمرافقة إلى فندق بلازا — مشياً على الأقدام بالطبع، في ذلك الأصيل الناصع البهيج، فالمطار لا يبعد عن الفندق سوى عشرين دقيقة راجلة، مرشوشة المسافات بتاريخ بائح الصمت. وقد كنت واحداً ممن آثروا الإحتفاظ بالحرية الشخصية مقابل التضحية بالعشاء المفتوح في الفندق — هذا العشاء الذي من شأنه أن يكشف الأصول الغولية للإنسان.

الندم هو الذي حل بنا في اليوم التالي ـــ نحن أعضاء الهيئة الإرشادية. رأينا ساندرا وعرفنا أن سعادة إيطالية هائلة قد فاتتنا البارحة، وليس فقط العشاء المفتوح. لا أحد يدري حتى الآن هل ولدت ساندرا في القطب الشمالي أم الجنوبي. لكن خُفّها الروماني، وتنورتها المنكمشة المتسامحة، والقميص الأرعن الذي تعلق بوسط كتفيها ثم هفهف ـــ كل ذلك أشار بالقطع إلى أن الرحم الذي حملها كان ثلاجة من نوع ما. لا يمكن للمرء أبداً أن يفهم، من وجهة نظر بدينة صرف، كيف تجد هذه العالمة الدفء في نهار أقصى درجات حرارته هي خمس عشرة! وحده قرص الشمس، بصفرته وترنحه. كان كافياً لجعل الأسنان تصطك برداً!

أمضيت تلك المرأة أسبوعها الأول وهي تعصف بكل ما يشيده المرء في داخله من التوازنات العقلية والعاطفية والسلوكية اللازمة للعيش في الجزيرة. ترامى كل شيء مستتب، مثلما تحامت الحجارة والأعمدة والأقواس في مواقع الآثار. حلّت بين هذه المواقع منذ أول يوم كأنها إلاهة عالم سفلي صعدت إلى الأفق، فأعلنت عن كل الخفايا. تلبس أثناء العمل ذلك الجينز أو تلك التنورة، وذلك القميص المجنون، وتعلق بكتفها جعبة واسعة حفلت بمئات الخرائط والأوراق والأدوات والألوان والأقلام ووسائل الزينة النسوية...وبعدها تنخطف في الفندق والمتحف وشوارع المدينة وشاطئ البحر. ما كان أحد ليضايق حركاتها، بالطبع، أو يحد من حريتها. ولم يوح لها بوجود خطأ ما أو خرق للأصول. هذه امرأة أجنبية، ومسؤوليتها هي أمام ربها يوم القيامة. نحن علينا فقط أن نتعلق بأهداب التقوى والعفة، ونثبت لها أنما الأمم الأخلاق ما بقيت!

واحداً بعد واحد، أدركنا أن هذه المرأة ليست عشتار ولا أفروديت. إنها عالمة آثار، ولا علاقة لاهتماماتها العقلية باهتماماتنا الجنسية. كانت تقبل على الشغل بشهية ولهفة، وتسلّم علينا كأننا العنصر الوحيد البارد في طقس الجزيرة. وما إن تنطلق إلى المعابد أو البيوت التحتية أو مواقع التنقيبات حتى يتلاشى منها كل شيء له علاقة بحواء وآدم وتلك

الشجرة. وفيما رحنا نتذكر سيلفانا مانغانو ونحلم بأورنيلا موتّي — التي كانت تشبهها، الخالق الناطق — كانت هي تركض وراء الأموات الذي تركوا لها قبل خمسة وأربعين قرناً هذا الكنز الخرافي الدفين.

شيئاً فشيئاً استعدت توازناتي العقلية والعاطفية المشرذمة. قلت لنفسي يجب أن لا تنسى يا سيد هيثم أنك هنا لتأمين الطعام والكتاب لأخوتك الأربعة ومعهم السيدة أم هيثم الموقرة. أنت قوة عمل متعاقد معها لأجل مسمى.

هدأ في الأسبوع الثاني الفوران الذي أحدثته ساندرا، وصار اصطحابها إلى أماكن البحث، مع زملائها الموقرين، أقل حرارة من موعد الثامنة إلا الربع المنطفئ. كانوا يحضرون في الثامنة إلا دقيقتين تماماً، يقفون أمام الباص، ثم يدخلون مع المتدربين: ساندرا تجلس مع البنات، وزملاؤها يجلسون في الخلف مع الأولاد.

وجد جناب المدير بسرعة أن هذا الترتيب مرشح لأن يخل إخلالاً خطيراً بالأصول. كان قد حضر إلينا في الصباح الرابع من الأسبوع الثاني وهو أشد ما يبدو حرصاً على حسن سير العمل. راقب بهدوئه الإسمنتي المهيب مشهد الصعود إلى الباص، الذي صار رتيباً ومضحراً بالنسبة لي، وأحسّ فعلاً بهبوط في قلبه. وقبل أن أصعد من الباب الخلفي أومأ لي بجفنيه أن تعال إلي.

التقطني من مرفقي بتواضع، لحظة وصلت إليه، وقال:"بعدما تعود من الشغل، تعال إلي في المكتب. مسألة مهمة جداً." واستدار بحزم، عائداً من حيث جاء.

أتيت إليه في المكتب. أبهجني أن السكرتيرة البدينة السمراء، ذات الشعر الأشقر، نهضت فور وصولي وفتحت لي باب الدخول. دخلت. سلمت. وقفت بعض الوقت، مراعياً الأصول في انشغاله العميق بكراسة صغيرة مفتوحة بين يديه.

فجأة أطبق الكراسة ونهض. سلم علي، والتقطني من مرفقي بتواضع، ودفعني بأدب وإكرام إلى الكنبة الجلدية. جلست. ووقف هو موكئاً إليتيه إلى طاولته.

قال لي جناب المدير أنه أحب أن يلغني بقرار اتخذه عند الصباح، ويتمنى ألا أعتبره على الإطلاق ماساً بشخصي الكريم. فالقرار قد اتخذ لمصلحة البنات: تخصيص سيارة شفروليه ستيشن للبعثة الأثرية الإيطالية. وصمت قليلاً، ثم غمغم بحيرة صادقة متسائلاً عن الزمن الذي ستتخلص فيه من عبوديتنا "الذهنية" للغرب. ثم أضاف مفترضاً بصورة نظرية أنني أشاطره الرأي: "لون أصغر ملابسها الداخلية يظهر كل عشر ثواني؛ نحلّها ضيفة على بلادنا! ونبعثها للعمل مع بناتنا الطاهرات!" وأضاف:"أنا أصلاً وقفت بكل حزم ضد برنامج تدريب البنات. ياما ستنشأ لنا قصص وقصص عن غواية الشيطان لهن." وأضاف:"نفتح لهن أبواب الغواية، ونطلب منهن سد آذاهن عن وسوسة الشيطان." واختتم بالقول: "كل المواقع الأثرية تصلح لشياطين هذه المرأة. عندنا ألف سرداب وألف قبر ومسكن!"

أحسست أن المقابلة قد انتهت. نهضت بحسب الأصول، وكذلك ودعت. وعند الباب قال لي: "غداً إن شاء الله، تأخذهم الستيشن إلى مواقع العمل. أنت لا تشغل ذهنك بهم."

كان واضحاً أن جناب المدير يعتبر ساندرا مفرخة جراثيم إيدز أخلاقي لم تعرف به من قبل، لكن جنابه، بيقظته ورعايته الدائمتين، توصل إلى اكتشافه. وهكذا تحولت ساندرا من طيف إلى شبح. كان رؤيتها وحسب تثير حساً بالرونق والانشراح. أما الآن فقد تعين علينا اعتبارها مخلوقة متأبلسة، لكي نتصدى للطقوس الخفية الرجيمة التي تسحر بها بناتنا الطاهرات. كل ذلك، بالتأكيد، لكي لا أصطحبها في الباص، مع احتمال الفوز بشيء ما في المستقبل.

أمضيت مساءات بقية الأسبوع في المدينة. لم تفاجئني هناك أية مادة من مترعات العالم الاستهلاكي الباذخة والهائجة، والهائلة التنوع - السيارات

الفارهة، القصور الخرافية، المخازن الخيالية.. غير أني أحسست أن الجزيرة برمتها آثار بآثار، وأننا في هذا العصر تماثيل تستدرجنا الشوارع إلى الحركة.

رزح علي حس بالظمأ المزمن. لقد ابتكر الرجل والمرأة قوالب عذابهما الأبدي ونزلا فيها، وعندما أراد الاحتفاء بالحب فصلاً له أكفاناً.

مساء الخميس وجدتني أمام المتحف. دخلت. على الأقل، يلتقي المرء هنا بشيء من الفن في جوقة التماثيل هذه، وليس بوجه المدير. غير أنني التقيت بعد قليل بالبعثة الايطالية في جناح الآثار المحلية.

"ها!" هتف البروفسور كاليغاري بالانكليزية. "جئتنا من السماء يا سنيور!" كانوا، وساندرا معهم، يقفون أمام تمثال عناتو الباهر، المنحوت بالطول الكامل من مرمر نقي. وحدها ساندرا بدت كمن انتهت من الزيارة كلها. استندت إلى فسحة خالية من الجدار وانتظرت انتهاء زملائها.

وضع البروفسور كاليغاري ذراعه حول ظهري وابتسم ابتسامة رجل يبحث عن كلماته. قال: "سنيور هيثم، نحن لدينا ملاحظة حول التماثيل الموجودة في ممرات الجناح الأربعة. هذه الملاحظة هي أن التماثيل كلها بملابس كاملة. آلهتكم القديمة هذه عناتو، مسربلة بالملابس. وهذا المتعبد هناك، في الممر الأول، انظر إليه. ملابس، ملابس كثيفة، سميكة. تنورته لها ست طيات! لا يظهر منه إلا الذراع.."

نبرت ساندرا من موقفها، بالانكليزية أيضاً: "وهذه الآلهة! انظر إلى وجهها الكئيب البائس. صدقني إن سبب بؤسها هو أنها خلقت في بلدكم الذي طمرها بهذه الملابس.."

قال باحث ثالث: "وتماثيل الملوك والأباطرة والجنود:" كلها مثقلة أيضاً بالملابس. في الحرب ملابس، وفي الأعراس ملابس."

صاحت ساندرا: "لو خلقت عناتو في روما كنا وضعنا على وجهها ابتسامة، ونزعنا عنها جلود النعاج هذه.."

قال البروفيسور: "أنت تبالغين ياعزيزتي السـنيورة . كوارّاديغيـي. الحقيقة، سنيور هيثم، نحن كنا نحاول أن نفهم مغزى كثافة الملابس في بلاد حارة مثل بلادكم.."

قالت ساندرا بسخرية: "اسأل بناقم. ملابسهن هي نفسها ملابـس عناتو. سربال على الجسم. وسربال على الرأس. المعذرة ياسـنيور هيثـم، ولكن قل لي، هل ستجد الحرية طريقها إلى هذه البـلاد يومـاً؟ أردت أن أسأل مديركم، لكنه يرفض أن يقف معي خمس ثوان."

قيل كلام كثير بعدئذ. وأوشك الحوار أن يصير خناقة وهراء. غير أنـه لم يهدأ و لم يفتر. أخذوني معهم إلى فندق بـلازا. وجلسـنا في حجـرة البروفسور نشرب الوسكي ومنكرات أخرى، ونتصـايح.. ليـس تمامـاً نتصايح. لقد ظللت محتفظاً تماماً بتوازناتي العقلية والعاطفيـة. وفي الوقـت نفسه لم أترك لأحد فرصة اقامي بالانغلاق والتخلف. عندما فرغ كأسـي صببت لنفسي كأس وسكي، مثلاً، و لم أنتظر حتى يلاحظ أحد منهم فراغـه فيصب لي. وأيضاً غيرت مجلسي، فقد غير الجميع مجالسهم، وانتقلوا مـن مكان إلى آخر إلى آخر، مثلما انتقلوا من عصر إلى آخر، ومـن قـارة إلى أخرى.

وحدها ساندرا قبعت في كنبتها و لم تتزحزح. كانت بصحبة كأس من الجن. وقد أوحى جو جلستنا بأن زملاءها انتظروا منـها الإقدام على شيء ما، غير أنـها لم تفعل. و لم يكن لي أن أعرف مـاهو ذلـك الشـيء. ووجدتني بعد ساعة من الضحك والشرب والحديث، أفرح فرحاً خبيثـاً لكونـها نصف

منعزلة: هناك بالتأكيد أشياء يمكن ان تشكم هذه الفرس الجامحة!

عدت إلى عملي بذلك الهبوط الذي تعرفه الـروح عندمـا تتعطـل بوصلتها. حتى أنني فوجئت في الثامنة إلا الربع بوجود سمسمة المعتاد أمـام باب صفي، وبانسحابـها وهي تبتسم وتثبت عينيها بوجهي قبل أن تديـر ظهرها. لكأن دهراً مضى. وبعدها خرجنا إلى المواقع.

قسمت المتدربين العاملين معي إلى أربع مجموعات، وتركتهم يقومون بالقياسات، ويكتبون الأوصاف، ويعقدون المقارنات، ويستخلصون النتائج.. لكي نطابق بعد انتهائهم بين أربعة تقارير مجموعية ونخرج منها بتوصيف واحد.

كنت محتاجاً إلى خلوة. ولأول مرة وجدت نفسي في مواجهة الآثار والأسوار والحفائر، كشخص وليس كمعلم. حتى ذلك الحين كانت المواقع بالنسبة لي هياكل يكمن جمالها الفريد في أنها تداعت. تجولت بينها وبين ظل الغيوم، وأخذت أستروح عبر انتصاباتها ونسائمها شعوراً بالبنوة العابثة، التي باتت في مأمن من سلطة الآباء.

نزل المطر صباح الاثنين. خلال خمس دقائق وجدتني أبحث عن ملجأ. لم يكن الملجأ نادراً حولي، ولا مجهولاً. عدوت إلى أقرب واحد من منازل عناتو تحت الأرض، وانزلقت على درجاته الاثنتي عشرة. مرتين أوشك جبيني أن ينشجّ بضربة من سقف الدرج الوطيء. لكنني تمالكت نفسي. وفقط عندما وصلت إلى جوف المنزل، بدأت اشتم هذا العقل المعماري الذي فرض على الهامات والظهور أن تنحني في هبوطها إليه أو صعودها منه.

اشتد نزول المطر. إنه لشيء مثير وجامح أن ينزل المطر وأنت في جوف الأرض. الشعور هو شعور جنين في رحم أمه، حواسه تعمل بكامل طاقاتها.

تمنيت فنجان قهوة. تلفت حولي. هذه التجاويف المستطيلة الدقيقة في أعالي الجدران هي بلا ريب خزائن البيت ورفوفه. لكنها خالية تماماً، من القهوة من كل شيء – شأنها شأن هذا المكان الغارق في السكون والعتم والنسيان.

ثم سمعت وقع الأقدام. حفيف خفيف. رفعت عينيَّ ورأيت خُفَّيّ ساندرا. ثم ساقيها. ثم رجليها. بالطول الكامل. كانت تنزل ووجهها إلى الخارج.. وهاهي ذي تلتفت عند الدرجة العاشرة، وتنزل الدرجتين

الباقيتين ووجهها إلي. توجهت عيناها نحوي حاملتين ابتسامة رغيدة لا أثر فيها للمفاجأة. رأيت شعرها ووجهها يقطران ماء، وقميصها الناري بليلاً، وبشرتها المتوسطية خالية تماماً من زرقة البرد.

كانت على وشك أن تقول شيئاً وهي تصافحني، عندما اندهش وجهها وفارقته الابتسامة. "مابك؟" سألتني. ثم أكدت: "أنا لست شبحاً."

"طبعاً، طبعاً. بالتأكيد."وأضفت: "لكن ..أعني.. كيف جئت إلى هنا؟ هذا.. هذا يحدث فقط.. في سيرنا الشعبية."

"وهو يحدث في القرن العشرين. وسيحدث في الواحد والعشرين"

أفلتت يدها من يدي وأخذت تتفحص البيت. كانت ما تزال تقطر مطراً. نظرت إلى الأرض ملياً، وكانت ملساء حتى لتشبه البلاط. ثم التفتت إلي:"أنا أبحث عنك منذ يوم السبت لأعتذر لك. أنا كنت فظة وغير ديمقراطية في الكلام الذي قلته. هل تقبل اعتذاري؟"

صوت المطر في الخارج أوحى بأنه ما زال شديداً. أما القطرات الهادية من رأسها وأنفها فلم تفعل شيئاً أقل من أنها أخذت معها كل لغتي.

لكن ساندرا فهمت أن صمتي تردد في الرد عليها. قالت:" اسمع. أنا فعلاً آسفة ومعك حق أن تتردد في قبول اعتذاري. لكن الذي أعرفه أنكم سريعون إلى السماح."

تمنيت لو أنها تسكت. وسكتت. أحست وسكتت. التفتت إلى درج البيت بدهشة خفيفة. وغمغمت بصوت خفيض:" أنا مثلك، المطر يصيبني بكآبة خفيفة. لكنها كآبة منعشة." التفتت إلي:" هل أنت كئيب بسبب المطر؟"

"لا أنا كئيب بسبب آخر. المطر بالنسبة لي نوع من اليقظة. أنا كئيب..."

كان يجب ألا أتلكأ. هنا مكان آخر غير الفندق، ولا لزوم فيه للتوازنات. لا بأس أن يكون الرجل رقيقاً حيال المرأة، ولكن ليس متردداً

ولا ضعيفاً. ثواني، ثلاث أو أربع، مرت وعيناي تسألان عينيها، قبل أن أتابع:" لأني لا أعرف كيف أشق طريقي إلى شفتيك."

ضحكت وهي تقول بسرعة:" إنها أقصر مسافة بين نقطتين!"

ثم اندهشت. وكان في دهشتها كآبة خفيفة. نظرت إلى بلا ضحك، كمن تلخبطت حقائقها الثابتة. ورأيتني مضطراً إلى التردد، بعد أن هممت أتقدم إليها. لكن كل شيء في تلك اللحظة كان يستنفر الأعماق النضرة للقلب البشري. أدركتُ تماماً أنني رغبتها منذ يومها الأول على هذه الجزيرة، وإنني كنت كل يوم أكوّم في بيوت نفسي الداخلية شهوة كللوج لاحتضانها.

"وإذن ففي هذه الجزيرة رجل واحد على الأقل يعتبرني امرأة" قالت وهي تمد ذراعيها إلى كتفي.

انفردت أعصابي إذ ذاك، وقلت لها بينما يداي يطوقان خصرها: "ولحسن الحظ، هذا الرجل هو أنا."

كانت أطول مني. وإذ ارتقيت إلى شفتيها على أصابع قدمي، أحسست بقدميها تتخلصان من ذلك الخف. وبعدها غاب عني كل ما هو خارجنا. حتى المطر تلاشى خريره. وصار قميصها غطاء لراحتي السائحتين.

"هذا ليس عدلاً" غمغمت ساندرا ونحن ننفرك جسماً لجسم.

ظل صوت المطر غائباً بضع دقائق. صوت واحد فقط هو الذي حضر: حفيف البشرة بالبشرة. وإذ هبطت شفتاي إلى جيدها لتمتصا بَشرتَها هناك، غمغمت هي:" هذا ليس عدلاً". انفككنا قليلاً لالتقاط أنفاسنا. أفرغت صدري من شحنة هواء حبيسة، وسألت:" ما هو، الذي ليس عدلاً؟"

" أنت تبطل مقاومتي بشراهتك؛ بينما هنا لا يصلح للحب!"

" كل مكان يصلح للحب،" قلت وتقدمت إليها.

أسندت راحتيها على صدري وأوقفتني:" أنت مجنون. أنت إيطاليانو فظيع!"

" كلنا بحر متوسط، وشمس."
" أنا لن أرمي ظهري على هذا التراب الرطب"
" أنا أرمي" قلت، وأبعدَّ عني راحتيها.

بالطبع لم نتقيد بهذا الإتفاق حرفياً، فالكرة الأرضية في حالة دائمة من الدوران. لكنني وحدي تحملت عقابيل ذلك. فقد مددت ظهري على التراب البليل، وتلقيت جسد ساندرا فوقي لكي لا يصيبها التراب بأذى.

أمضيت الأيام السته التالية مريضاً وقيد المعالجة. عدة أمراض رفعت رؤوسها داخل بدني دفعة واحدة. الزنطارية وسكاكين الظهر كانتا أبرزها ومعهما جاء التهاب القصبات، ووجع الأسنان، وضعف الحواس، والسعال. لكن استعصاء البرد في أضلاع ظهري، ورفض عضلاتي هناك القيام بأية حركة يميناً أو يساراً، إلا تحت طائلة شلل يقطع النفس، كانا البؤس والشقاء بعينهما.

كان هناك مرض آخر أصرح به للأطباء. وذلك هو رعب اليومين الأولين اللذين أمضيتهما في الفراش. هل رآنا أحد، ساندرا وأنا؟ كان الإحتمال ضعيفاً وسخيفاً. لكن الخوف لا يعرف منطقاً ولا محاكمة. بمجرد الرؤية سيكفي لنسج قصة لا علاقة لي بها، من علاقات متكررة مع ساندرا، وتعهير لأماكن الآثار، وتعريض البنات لخيالات جامحة عير ذلك التعهير، وربما أيضاً الشذوذ الجنسي. وماذا لو رأت سمسمة، أو واحد من طلابي، دخولنا نحن الإثنين بيت عناتو؟ ماذا لو جاء أحد يلتجئ من المطر ورآنا معاً في ذروة عرينا وغفلتنا؟ ماذا لو ركض واستدعى الشرطة؟ ماذا لو أن الشرطة تقدم الآن بتحقيق ما؟ أية عقوبة سيبتكرونها لي؟

اطمأنيت فقط يوم زارتني البعثة الإيطالية ـ اليوم الثالث. جاءوا كلهم. وكل شيء كان طبيعياً ومألوفاً ــ إلا ملابس ساندرا. لقد ارتدت رداء فضفاضاً يغطي الزندين. اختفى القميص، وحلت محل لبوس ساترة حتى المعصمين والنحر والكاحلين. ولو أن ساندرا حمراء زرقاء لبدت للوهلة الأولى أختاً لسمسمة.

قبيل مغادرهم (وكانوا مبحبحين تماماً في حركاتهم) جاءت إلى وجلست قرب رأسي. كانت تبتسم بخبث وسلام ومحبة.

" أريد أن أروي فضولك بخصوص ملابسي،" قالت وهي تدني فمها من أذني." عندما اقبرب وقت زيارتنا لك أحسست إحساساً غريباً. أحسست أن جسدي عزيز علي. أكثر مما هو عزيز على في الأوقات الأخرى. أحسست إحساساً غريباً. أحسست أني كرمى لك يجب أن أمنع عنه أعين الآخرين. هل هذا عدل؟ هل يرضي غرورك؟"

" أنت عناتو حقيقية." قلت لها، وتبادلنا نظرة طويلة وعميقة. ثم تناولت هي علبة دخانها فأشعلت لي سيجارةن ووضعتها بين شفتي. وظلت تسحبها فتنفضها فتعيدها، إلى أن أحترقت بالكامل.

لو أن وقت الزيارة ذاك، الذي أمطر عليها ذلك الإحساس، طال وصار عاماً، مثلاً، أو كان محتملاً يا ترى أي نغدو حبيبين، ساندرا وأنا؟

لا جواب ـــ ببساطة، لأن البعثة الإيطالية سافرت بعد أربعة أيام آخذة معها ساندرا إلى ميلانو.

ـ ٣ ـ

إذن، حظيت بخيبتي الحادية والعشرين مع النساء. بادئ الأمر هممت أن أكتب لساندرا رسالة من نوع ما. لكن أم هيثم زجرت وجمعت حولي أخوتي. قالت:" خمس دقائق لا أكثر، وقفتها مع تلك المرأة والشيطان ثالثكما، خمس دقائق أمرضتك ستةَ أيام. كيف ستشفى من المرض إذا عشت معها العمر كله؟"

قلت لنفسي، يجب ألا أقع في الغلط وأظن أن لقاء جنسياً دراميا بهذا الشكل يمكن أن يضمن سعادة زوجية. أصلاً، سافرت ساندرا وكأن قصتنا انتهت. وقلت لأمي:"وماذا إذا تزوجتها وحرمت الشيطان من أن يكون ثالثنا؟"

أصرت أمي:" هذه البنت فاجرة، بلا أخلاق وهي الشيطان بعينه."

وقد أنساني حب أخوتي وأمي حب ساندرا. لست أدري إن كان هذا النسيان جزءاً من مخاتلتي الكبرى للحياة. أنا لست إنساناً مهزوز القيم، لكنني لا أثق كثيراً باحتمالات المشاعر. وحتى الآن يمر بي بين حين وحين خاطر عابر يقول لي إن ساندرا كانت فعلاً المرأة الحقيقية التي أحتاجها. ثم يتبعه خاطر آخر مفاده أنني لو كنت واثقاً من حبها لي، وبصورة خاصة من إخلاصها لي، لحجزت بطاقة طائرة إلى ميلانو.

ازدردتني التفاصيل اليومية للحياة إلى أن وجدت نفسي أخيراً أحمل حقيبتي وأعود إلى الجزيرة كي أبدأ موسماً رابعاً هناك. عدت إلى الثامنة إلا الربع. وهناك وجدتها: البرونزية الفاتحة، البرونزية الغامقة. كانت جالسة إلى اليسار، على مقعد معدني. نظرتها الزرقاء، المزنرة بابتسامة، معلقة بوجهي.

وضعت على ملامحي تجهماً متواضعاً وجموداً رصيناً. ومن دفتر صغير قرأت اسماء المتدربين وارقامهم في السجلّ. نظرت إلى الركن الذي خرجت منه كلمة "حاضر" كلما ناديت الإسم، ثم وضعت على الدفتر إشارة حضور.

أخيراً: سامية قاسم الحميدي – المعروفة باسم سمسمة، فيما بعد.

اتسعت ابتسامتها حتى بانت سنّتاها المفركشتان، وامتلأت شفتها السفلى ونفرت إلى الأمام. رأيت في وجهها غبطة، بل رغداً، ربما. غير أنه لم يتخلّ لحظة واحدة عن حياده المطلق. بصورة خاصة، عيناها. هاتان أرسلتا نظرتهما كراية بيضاء ترفعانها ريثما يتم الانسحاب من حضرة البعبع.

وإذن فأنت يا سيد هيثم أمام واحدة من العائلات التي بوسعها أن تخفي أفعال ثأرها بالسهولة نفسها التي تودع فيها ملايينها المصارف الأجنبية، أو تبني جامعاً هنا وجامعاً هناك.

طول النهار لم أر في سيماء هذه الفتاة إلا تعبيراً واحداً: لم تكن تريد من العالم شيئاً.

كل حركاتها، كل نظراتها، كل حديثها - ليس له بعدئذ. جلست في الصَف، خرجت إلى الأعمدة والمسرح الروماني، دخلت في مستويات التنقيب.. وقامتها تنطق بصورة واحدة: هذه الفتاة ليست قلقة.

وذلك الهدوء والأنزوغاء. الإنصات. المشية الانسيابية، والتوقف الظليل. رأيت غريباً حقاً أن تناديها زميلاتها: سمسمة! فترد أو تلتفت باعتزار، كأن أحداً ناداها: يا سمو الأميرة! خلال الأسبوع الأول، كنت كلما لفتت انتباهي واحدة من المتدربات أحسست نحوها بالانجذاب المفلفل الطبيعي للرجل نحو المرأة. وبالطبع كان كل إحساس من هذا النوع يدخل في قمقم الأصول دخولاً محكماً، بحيث يتلفح بالتقوى والصرامة وحكمة الاستشهاد بالموروث. إلا أن سمسمة أوحت بشيء آخر.

مراقبة لصيقة دامت الأسبوع كله؛ تفرسات مباشرة مقدامة ومتتالية سلطتها على وجهها ونحن نتحدث عن "لقاء الحضارات" في الجزيرة (البحث الذي اختارت العمل عليه)؛ أسئلة محسوبة عن الأسر في الجزيرة والتوازن الأسري ولعبة السمعة ومكارم الأخلاق فيها. بعد ذلك أيقنت بما لا يقبل الشك أن وراء هدوء سمسمة المثير الذي لا يتزعزع قصة حب نائحة، من نوع عنيف وجارف لم تعرفه حتى هذه الجزيرة الحافلة بالمعرفات. وبت كلما نظرت إليها فهمت لماذا تبدو فتاة في التاسعة عشرة أقرب إلى أن تكون في الخامسة والعشرين.

كان اكتشافاً حزيناً. هو أراحني بطريقة ما: الفتاة غير مستعدة للحب قطعاً، وبالتالي فلن اتوجه إليها بمشاعر حب تجعلها الخيبة الثانية والعشرين في حياتي. كل ما في الأمر، إن فتاة تنضوي في جوانحها هذه التجربة الأعمق بين التجارب تستحق كل العطف الممكن من إنسان لم تمر حياته بتجربة واحدة عميقة. والاحتمال الأكبر هو أن سمسمة محتاجة إلى ذلك العطف.

يوم السبت. كانت الساعة تقارب الثانية، وبرنامجي لذلك اليوم انتهى أخيراً. تمددت في غرفة المدرسين ورفعت ساقيَّ على الطاولة. سألت نفسي كيف يسعني أن أقدم سلواناً حقيقياً لهذه الفتاة العاثرة الحظ. وكنت واعياً

بأن كل ما فعلته لأجلها هذا الأسبوع ليس شيئاً إزاء جرح غائر في الروح. تذكرت إخوتي الصغار، وأخواتي المتزوجات، وتمنيت لو أن بيئة الجزيرة ذات الأسوار هذه تمكنني من أن أقدم لسمسمة شيئاً مما أقدمه لهم ولهن. إن أختاً رابعة لن تزيد من أعبائي ما دام الأمر غير متعلق بالمال.

وهاهي ذي تدق الباب بسبابتها المعقوفة. تطلب الإذن بالدخول. أرفع ساقيَّ عن الطاولة وأنزلهما على الأرض، وآذن لها بالدخول. تدخل. مبتسمة، منفرجة الشفتين لا الأسنان. تجلس على الكرسي.

تكلمت في أمور عادية لا أهمية لها، ولا تصنع حقاً سبباً لزيارة متأخرة التوقيت. ذلكم هم أهل هذه الجزيرة: لن يقولوا لك شيئاً مباشرة، لن تعرف ماذا بالضبط يريدون.

فكأنك لست واحداً منهم وإنما غريب قادم من عالم آخر.

" أنا كتبت بعض الكلمات. وأتمنى أن تقرأها،" قالت . ثم فتحت جزدانها وهي ما تزال مبتسمة.

"كلمات أدبية؟ أم عن موضوعك "لقاء الحضارات،؟"

"لا هذا ولا ذاك،" قالت وهي تمد يدها الراسخة بورقتين مطويتين صغيرتين. تحية، مساء الخير، التي علت زاوية الصفحة الأولى جمدتني ثواني. فهمت أن "بعض الكلمات" تلك هي في الحقيقة رسالة شخصية، خفقت جوانحي. أحسست بالضيق والحيرة. لا شك أن مشاعر غافلة لدي قد رأت منفذها في اهتمامي الأخوي الذي أحطتها به لكي تنسى أوجاع قلبها.

سألتني الرسالة لماذا أنا مهتم بصاحبتها. سألتني لماذا لا أترك البنت وشأنها. ولماذا لا أترك فرصة تمر دون أن أظهر اهتماماً أو أحاول تقديم مساعدة. سألتني ماذا أريد منها. سألتني ماذا أريد بالضبط. وتساءلت بحيرة عن الذي يمكن أن أريده وأنا أنعم بحب زوجة جميلة وفية متفانية، وثلاثة صبيان رائعين هم أيضاً يغمرونني حباً فوق حب. تساءلت عما اذا لم يكن خيراً للجميع أن آتي بأسرتي السعيدة إلى الجزيرة وأنجو بنفسي من وساوس الشيطان وشراكه وأحابيله: تساءلت عما إذا لم يكن أقرب إلى

مرضاة الله وطاعته أن تعيش العائلة كلها معاً، فـأكفّ عـن أن أتنكب الشيطان معي كلما توجهتُ إلى سمسمة. وتساءلت أنا: كيـف لم أنتبـه؟ تساءلت: أيمكن لأحد في هذه الجزيرة أن يقبل مشاعري الأخوية ويصدقها؟ أيمكن لأحد في الأرض؟ كيف أخذت بهذا الاحتمال؟

"لماذا الكتابة؟ لماذا لا تتحدثين مباشرة؟"

قالت بهدوء، والابتسامة لا تفارقها: "لأني في الحديث أرتبك، ولا أعبر مثلما أريد."

قلت لها إن خطأ ما قد وقع، وأننا يجب أن نصلح هذا الخطأ فوراً. "أنـا أكبرك بعشرين سنة، فكيف يمكن أن يخطر لي.. وأنا، أنا رجـل متزوج. وأكبر منك بعشرين سنة. يعني، ترين أن الحكاية كلها تهيؤات.."

أجل. أكدت لها أني متزوج. كنت في حاجة موحشة إلى الدفاع عـن نفسي بأي ثمن. كانت رسالتها هذه نوعاً من التحريش لي. وكانت أيضـاً تهديداً غير مباشر لرزقي. أكدت لها أنـها واهمة تماماً، وقطعت الطريق أمام أي مستقبل لهذا التوهم.

"تريدين أن أنقطع تماماً عن الاهتمام بك؟"

"لا. ستلاحظ البنات انقطاعك. بالتدريج. شوية شوية."

"أمرك يا آنستي. خدمة ثانية؟"

"إني طبعاً!" قالت وأسنانـها تنفرج بالابتسام. "لم تقل لي، أستاذ، لم أنت اهتممت بي."

بدأت أرى لحظتها كم هما جميلان وأليفان ذانك البروزان الصغـيران في سنيها وشفتها السفلى. هتفت: "عندي بالتأكيد سبب يا آنسـة،" تـردد حكيت لها عن يقيني التام بأن وراء مظهرها الهادئ ومشـيتها الإنسـيابية ونبرها الخفيضة..قصة حب عنيفة انتهت إلى فشل مرير. بتجهم خفيـف وجمود يشي بالحكمة والوقار، قلت إن ابنة لعائلة مدهونة مثل عائلتـها لا تحتاج إلى شغل لتكسب عيشها ، بل ولن ترى في الشغل إلا نوعاً من التدني الإجتماعي. فانضمامها إذن إلى برنامج وزارة السياحة يعني شـيئاً واحـداً

فقط، هو أنــها تريد أن تنسى." لهذا أحسست بتعاطف كبـــير معــك. أردت مساعدتك بطريقة ما. فالخيبة في الحب أصعب الخيبات."

لم تبد عليها ذرة انفعال واحدة. رغم طول الشرح وجفافه، ازدحـــم الفضول الأزرق في عينيها، رغم فتور ابتسامتها. وعندما أنهيت كلامـــي، غمغمت هي بمرح واستطراف:" لا قصة ولا شيء . الله وكيلك من بيتنـــا للمواقع، ومن المواقع لبيتنا. حتى أني لا أعرف الجزيرة مثل العالم."

قلت لها بعناد مترفع: " اسمحي لي يا آنسة..إنما هـــدوءك الشـــديد، ومجمل ملامحك، أعني تبدين في الخامسة والعشرينن بينما أنـــت في الثامنـــة عشرة."

قالت ببساطة:" أنا فعلاً عمري أربع وعشرون. أما الهدوء..فخلِّـــكَ منه"

ظلت تبتسم، ولكن بلا أسف، بلا ضيق. كأن ادعاءها بضيق حركتـها في الجزيرة. لو كان صحيحاً، هو سر سعادتها. مع أن قصة حـــب عنيفـــة يمكن أن تحدث بين الجدران، ودونما حاجة للتجوال في "الجزيـــرة". تلـــك الجغرافيا المعلقة.

نهضتْ. أسندت كراريسها على صدرها. وأسندت ابتسامتها علــــى وجهي." أشوفك بخير" كانت جملة وداعها.

نهضتُ ملذوعاً باحتمال مباغت: إنني لن أجتمع وهذه الفتاة هكذا مرة أخرى. فلألمس يدها على الأقل، قبل أن أودعها إلى الأبد ـــ إلا كطالبـــة. مددت يدي مصافحاً. فوجئت هي مدت يدها. التقت الراحتان فـــاكتملت دارة الشعور.

ظلت ابتسامتها مسندة على وجهي وهي تنسحب رُجعى حتى وصلت إلى الباب. ثم اختفت قامتها النرجسية دفعة واحدة.

جثمت ساندرا في مخيلتي وأماكني إلى أن غابت شمس ذلك النـــــهار. تصرفاتها وعشقها كانا زاداً للروح المملقة. ومع الأصيـــل الـــذي شـــرنق الجزيرة، أمسيت متأكداً حتى الموت أن قرناً كاملاً على الأقـــل يجـــب أن

يمضي بكل بطئه وآلامه قبل أن يمكنني احتضان سمسمة مثلما احتضنت ساندرا.

مع المساء صار ذلك اليأس فَرَقاً. المساء دائماً بؤرة العكر: حتى بيني وبين نفسي لم أجرؤ على الإقرار بشغفي بسمسمة . أقنعت نفسي فعلا أنها أخت صغيرة، إلى أن جاءت وسألتني: لماذا أنت مهتم بي؟

حمداً لله على أية حال. كانت البنت عاقلة وإنسانية. بدل ان تقول كلمة للمدير أو كلمتين لأبيها...اجتاحتني صور المدير وصور أبيها...وصور الشرطة، والفضيحة. ومستقبلي الوظيفي...

وصور إخوة سمسمة وإبناء عمومتها وآل الحميدي كلهم.. والعصي والخناجر والمسدسات..

لم كل واحد منا صغير في هذا العالم؟ ماذا كانت المجموعة الشمسية تساوي لو لم ينشأ الإنسان على الكرة الأرضية؟ ماذا كان نظام الدنيا كلها وجمالها ليساوي لولا وعيي أنا بها؟ لماذا كل هذا التصغير إن، لماذا كل هذا التكبيل لحباتنا وصبواتنا؟ لماذا نحن، دون مليارات المجموعات الشمسية الأخرى في الفضاء الرحيب؟ كل هذا الكون وسعتهن وأنا خائف على الخبز والحب!

أواخر المساء الرابع، رن الهاتف في شقتي." عرفتني؟ أنا سمسمة" قالت بعد أن ألقت تحية المساء.

جلست على الكرسي وأشعلت سيجارة. غير أن توقعاتي خابت لتوها. أرادت البنت موعداً وحسب، لمناقشة مسألة متأزمة في (لقاء الحضارات). لم تقبل أن نبحث الموضوع في مواقع التنقيب. " المسألة مهمة، مهمة" قالت بعصبية بنت مدللة. وأضافت بحرد:" أنت عندك يوم الأربعاء دوام في المكتب!" ثم قالت بدعة:" إذا كنت مشغولاً، نؤجلها إلى الأسبوع القادم" وكنت أتخيلها في تلك اللحظة وابتسامتها العريقة تقطر من شفتيها.

في اليوم الثاني قالت إن موضوعها مستحيل. "الموسم كله سيضيع بسببه. على الأقل سأخسر تقدير ممتاز" قالت إن اليونان والرومان لا يمكن

أن يلتقوا مع البابليين والآشوريين والآراميين والكنعانيين."شف كيف يلبسون وشف كيف نلبس نحن! شف شعورهم الوقح تجاه آلهتهم، وشف شعورنا العميق تجاه آلهتنا! يجب أن تسمح لي بتغيير العنوان. العنوان السليم هو: فراق الحضارات، لا لقاء الحضارات"

ثم قالت:" إذا لم تسمح لي بتغيير العنوان، سأكتب إن لقاء الحضلوات. تم فقط بسبب الصراع فيما بينها." وأضافت:" المسألة واضحة، واضحة. نحن نؤمن بالله، فنضع هذه الملابس علينا لأننا بذلك نرد عنا الشيطان. هم لا يؤمنون بالله. ويفتحون عقولهم للشيطان. يعني، لا لقاء."

تذكرت ساندرا طول الوقت الذي تكلمت فيه سامية. هذه المرة كان تجهمي وجمودي حقيقيين. كانت ساندرا خسارة فعلاً. وكان يجب أن أطير إلى ميلانو، وأسألها هل تقبل العيش مع تخلفي، وأعدها بأني سأتحسن. بدلاً من ذلك، علقت ثلاث أنشوطات أمام عيني ورحت أمرجحها برأسي أمام عيني أم هيثم .

"أنت لست معي، أستاذ!" كانت سمسمة تمتم بابتسامتها المألوفة الأليفة.

"فعلاً. وأنا آسف. كنت أتذكر أموراً ثانية" قلت بابتسامة معتذرة. واتخذت وضعاً مصغياً.

"زهقت مني؟" سألت؛ وفوراً انفرجت أسنانها بمزيد من الابتسام، وترقرق الضوء الأزرق في عينيها. ونفرت شفتها السفلى إلى الأمام، واستندت نظرتها على وجهي منتظرة جواباً عن سؤالها.

أنا أنا فكنت أتقلب على سؤالي. انتبهت في تلك اللحظة إلى الشغالات. لم أسمع صوتاً على الإطلاق. أكان ثمة صوت من قبل؟ أين الشغالات؟ نهضت ودرت حول الطاولة رأيت نظرة سمسمة تتبلل بالخوف مني، ومع ذلك تظل على ثقتها المسبقة. خرجت خائفاً من شيء آخر من شغالة لاطئة حدّ الجدار، ترى أحياناً وتسمع كل الوقت ميلاد هذا

الحب في بقعة محرمة. خرجت إلى الرواق الأول، فالثاني، وعدت بشيء من السرعة. لاحس ولا صوت.

كانت سمسمة جالسة على كنبة بلاستيكية. مؤكد أنني خلفت في تلك الأروقة كل توازناتي العقلية والعاطفية. طأطأت وجثوت أمامها على ركبتي. وسكنت هيسكوناً مطلقاً. مددت راحتيّ إلى ذلك الوجه..الوجه الموشوم بحب الشباب..الأملس كرخام قبلتها ملياً. بلا مقاومة منها وبلا توقف مني. أردت أن أستلّ من شفتها عكر أربعة وعشرين عاماً. وبعدها أصل إلى ذلك الصفاء حيث يمكن للروح أن تشعشع بالسلام والفرح. قبلتها لأجل ذلك لأنني أحببتها.

ثم اندفعت إلى الرواق. لم تكن هناك أية شغالة. وعدت إلى الغرفة بإحساس بالرخص. هذه الشغالات سيجعلن مني ممثلاً هزلياً، ومن هذه اللحظات الخارقة النادرة تهريجاً ومذلة.

تركت خوفي عند الباب وتقدمت إلى سمسمة. هناك لحظات تستحق فعلاً أن يأتي بعدها الطوفان. وهذه هي إحداها. انحنيت نحو فتاتي، مصمماً على تقبيلها حتى الموت. ألصقت راحتي بإبطيها، وأعليتها عن الكنبة. نهض جسمها مع يدي. وانتظرت عيناها شرحاً لما يحدث.

قلت:" كيف سأقبّلك وأنت جالسة!"

دفعني ذراعاها إلى الخلف بعنف فوري وفظاظة." ماذا تظنني؟" هتفت بما يشبه الضجيج. وارتمت على الكنبة مطرقة ومعقودة الذراعين.

أخذتني المفاجأة. وقفت بلا حراك. قلت:" ماذا جرى يا حبيبتي.؟"

تمتمت باحتقار جليدي:" لا تقل، يا حبيبتي. أنت ماذا تظنني، أنت؟ واحدة، والتقطتها من الشارع؟"

كان في صوتها اشمئزاز وقرف لا حد لهما. وكان وجهها كتاباً كاملاً من هذه المشاعر. لكن الغضب، الذي جعل شفتيها تخفقان وتلطمان، أخرس نطقها.

لم أدر ماذا أفعل. لجمت تماما. أية مهزلة: كل الوقت والشغالات هن اللواتي أنا خائف منهن! رأيتني في خضم اضطراب فظيع. هل أقترب منها فأجازف بإشعال غضبها مضاعفاً أم أبقى حيث أنا فأجعلها تحس أني انتهيت منها؟

كان يجب أن أقترب منها لأقول كلمة الصدق، لأقول كلمة أو اثنتين عن هذا النبع الصافي العذب الذي انشقت عنه أرض رومي الكتيمة. مهما كان الثمن، لا يمكن أن أتركها تحس للحظة واحدة أني انتهيت منها. رباه! إنني لتوي بدأت منها!

نظرت إليها بتوسل كانت أربع أو خمس بقع حمراء قد تناثرت على وجهها. روعتني فظاعته وبشاعته. بينما راحت نظرتها الزرقاء تنغرز في سجادة الغرفة، في مكان واحد لا تحيد عنه.

ثم: بهدوء وترفع، ودون أن تنزع نظرتها عن الأرض، تناولت جزدانها بهدوء وكبرياء لا حدود لهما، بترفع ساحق ألغاني من وعيه تماماً وكلية؛ ونهضت، أثبتت الجزدان على كتفها، واستدارت إلى الباب.

لم تربي. لم تقل كلمة واحدة. هوائها فقط عبر بي. وغابت.

لبثت واقفاً ما بدا لي أنه نصف قرن. دخلت شغالة وخرجت فلم أعبأ بها. لبثت خاثراً إلا من شيء واحد: نظرت إلى يديّ لترى على أصابعي وراحتيّ ملمس خديها ووجنتيها. شيء واحد لا غير بقي لأستعيده وأفكر فيه وأتحسسه، ذلك هو الملمس المرمري الذي لا نظير لملاسته، الليونة والطراوة والنضارة في وجهها الموسوم بحب الشباب. لقد تلاشت تقريباً كل ذاكرة حسية لشفتيها، وبقيت ذاكرة الوجه.

أنا إنسان تنهكه الاحتمالات. غير أنني في تلك الدقائق الدهرية التي تلت غياب سمسمة، لم أبال بالشغالات، ولا بأن تبوح سمسمة الجريحة المغضبة لأبيها بما حدث، ولا بأم هيثم وإخوته. باليت فقط بالنسيم الذي عبق من راحتي وأصابعي، الذي وحده حال دون أن ارتمي على الكنبة بإعياء..

بقيت طول النهار حريصاً تماماً على ألا ألمس بيدي أي شيء. فقد احسست أن سائلاً رقيقاً خفياً عبقاً قد التصق عليهما وأنني لا يمكن أن أفرط فيه.

وبقيت ضائعاً وجائعاً حتى الحادية عشرة من ذلك الليل.

— ٤ —

منذ أن ركبت سمسمة سيارتها ذلك النهار، وانطلعت بها إلى بيتها، انتهى تقريباً كل شيء. تركت بحثها في لقاء الحضارات. ولا زمت بنات مجموعتها التدريبية. في الصباح كانت تأخذ مكانها المعتاد في المقعد الطويل، وتبتسم ابتسامتها القديمة الدائمة. لم تنكفئ. بل وبدت منشرحة الخاطر. بين الآثار، وفي مواقع التنقيب، طرحت أسئلتها دونما ذرة واحدة من التأثر أو الخروج على الأصول. كانت ثمة اعوجاجة طارئة في الاستقامة الأبدية لمسيرة حياتها، وأرادت هي، بكل صرامة، تقويمها.

حرصت من ناحيتي على السلوك السوي. أية محاولة جديدة قد تدفع البنت إلى التصريح بالسر، وبشكل أكون فيه الخاسر الأكبر: للحب والسمعة، وربما للحرية أيضاً. ظل هناك شيء واحد فقط لم أعقله في البداية، هو نفوري المفاجئ من مواقع التنقيبات. وإلى أن استرحت ذات ظهيرة بجوار جدار من حجارة الغرافيت، منتصب وراء منصة المسرح الروماني، لم أفهم سبباً لا متنامي عن دخول تلك المواقع. كانوا يومها يستخرجون تمثالاً من هناك، نفيساً جداً على ما يبدو. تخيلت التمثال، ثم تذكرت ساندرا – جسدها الغائر، وقبلها الغائرة، وروحها الطليقة. تذكرت هجومها العنيف في المتحف على ملابس تماثيلنا. أدركت أن الملابس الخفية، التي تتزمل بها روح سمسمة، هي سبب نفوري. هذه التنقيبات ستكشف المزيد من أسلاف سمسمة، والمزيد عنهم، فهي كلها من الألف الثالث قبل الميلاد. وسنعرف أن آفة الملابس هذه ثاوية في أعماقنا اللاشعورية منذ خمسة وأربعين قرناً.

كان شعوري هو الجرح. عندما يوجد اثنان مثل سمسمة وأنا في فندق بلازا، تكون هي مقيمة في جناح، بينما أكون أنا مدعواً ـــ عائلتها المخيفة المشرشة في الجزيرة مع بقية العائلات، ثروتها المخيفة المشرشة في المصارف مع بقية الثروات، وألف ألف أهمية أخرى مقابل وجودي الشبيه بشجيرة صبار.

لكن، عندما يتقابل هذا الاثنان شفة لشفة وخصراً لخصر، فعلى جميع تلك الأسوار والجدران أن تتهاوى كما تهاوت معابد الإله شمش. لكل إنسان الحق في أن يرى نفسه كريماً. لكن لا حقّ لأحد في أن يرى نفسه أكرم من نفس غيره. لا سمسمة ولا عائلتها. لقد كانت ساندرا أصفى وأكثر إنسانية بكثير.

خلال الأسبوع الثالث رحت أفكر على النحو التالي: أو ليس احتمالاً كبيراً أن سمسمة رأت في إشراقة المشاعر الباهرة تلك مجرد مصيدة أوقعتها فيها لكي أقبّلها، ثم أدير لها ظهري بعد ذلك؟

لبثت يومين أفكر، متردداً في التصديق ومتردداً في التكذيب. ولكن، مثلما تلوّن الشمس المتواترة بشرةً تستحم فيها، تلون عقلي بالاحتمال الجديد. وفي نهاية الأسبوع صار يقيناً كاسحاً. ليس لأنه ثبت بالدليل القاطع، بل لأني، ببساطة، أردت تصديقه.

نعم. التففت على جرحي، وتغاضيت. وصار لزاماً علي أن أطيّب خاطر سمسمة مثلما صار لزاماً علي، من قبل، أن أعاملها كأخت صغيرة. كل ما خشيته، و لم أصدقه، هو أن أكون قد التففت على الواقع، وتغاضيت عن أن سمسمة قد احتقرت نفسها في الحقيقة لأن واحداً مثلي قبّلها.

لم ينثن عزمي. اشتريت مجلد أرقام الهواتف من البريد، ورأيت فيه ستة عشر رقماً لستة عشر شخصاً اسمهم قاسم الحميدي.

وصلت إلى رقمها منهك الخاطر. للمرة الأولى يأتيني صوت نسوي. تشجعت قليلاً، وظللت مضطرباً. سلّمت، وأعطيت اسمي، وأضفت: "أنا

أستاذ الآنسة سامية. جاءني اليوم بحث جديـــد، يتعلــق ببحثـــها معـــي، وضروري اطلاعها عليه لاستكمال البحـــ..."

"أنا سامية"

صمتنا.

"لازم أشوفك."

"طيب. بكرة. الساعة ثمانية."

"أنا منتظرك. لا تخلفي الوعد."

"طيب، طيب. لا تتصل مرة ثانية. باي."

كان صوتها خافتاً، يروح ويجيء كأنـــها تتلفـــت حولهـــا. أعـــدت السماعة وأنا أدوّم فرحاً. يا سبحان الله ما أقوى الحب. ما أجمله. ولكن مـــا موعد الساعة الثامنة هذا؟ في الثامنة نكون متقلقلين في الباص. فأي موعـــد هذا؟

كان فرحي قوياً، قوياً جداً. بل وصار يقـــوى. تركـــت خرائطـــي ومساطري وأقلامي، وبعد حيرة صغيرة انطلقت إلى فندق بلازا. كان يجب أن أحتفل بالمناسبة، رغم أنف ساندرا وكل الإيطاليانو.

جلست في مقصف الفندق المتقطع الأضواء، والقليل الرواد. طلبـــت تنكة من البيرة الهولندية الحلال. وإذ همّ النادل بصبـــها في القَدح، رفعـــت يدي له أن لا يفعل. البيرة في علبتها تحتفظ بالبرودة مدة أطول. وأي وقـــت ياترى سأحتاج فيه إلى هذه البرودة أكثر مما أنا الآن؟

رأيت البيرة منعشة ورائعة. نظرت إلى الرواد المبعثرين في زوايا المقصف شاعراً بالزهو، ولكن دون أن أكشف عن سر وليمتي. كل رشفة أعطتـــني حساً بالسلام والصفاء. لا شك أن الهولنديين هم خير من يصنعون البيرة في العا لم – حلالاً كانت أم حراماً. وأيضاً هذا المقصـــف الجميـــل، الهـــادئ، الشاعري، السارح. هنا، أكثر من أي مكان آخر، يمكن لسامية وهيثـــم، أن ينتبذا ركناً قصياً ويتبادلا البيرة فيه والحب.

شجعتني الفكرة الأخيرة على طلب بيرة ثانية. وقد فعلت - رغم أن الإكثار من السعادة يتخم الروح. ثم طلبت صحن نقانق، وصحن حمّص أيضاً. وبعدها سرحت في الشوارع. وظللت أتسكع حتى نظرت إلى الساعة فجأة، ورأيت أن موعد نومي قد أزف. كان الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة.

عندما رميت رأسي على الوسادة تساءلت: ترى ماذا تفعل سمسمة الآن؟ و لم يكن قد بقي لدي من اليقظة مايكفي لجواب تفصيلي. غير أن الجواب جاءني في الساعة الرابع والربع صباحاً.

رن جرس الهاتف على غير العادة. تزحزت عن السرير ورفعت السماعة. "ألو!" قلت بصوت ضعيف نصف ساخط، ثم داهمني التثاؤب.

"أيقظتك من النوم؟" جاءني صوت سمسمة.

"لا، لا، أبداً. أنا لا أنام باكراً،" أكدت لها بنبرة مليئة.

"أنا لم أنم حتى هذه الساعة."

"كيف، يعني! تسهرين الليل كله، ولما يجيء موعدنا تقعين نائمة؟"

"وطئ صوتك! يمكن يفيقوا! وبابا يذبحني."

"ماذا فعلت طول هذا الليل؟. سألت هامساً.

"كنت أكتب."

"رسالة لي؟"

"رسالة لي أنا. بكرة أقرأها لك. اقطع، اقطع. تصبح على خير.. تصبح على خير."

انقطع الخط.

لم استطع نوماً بعد ذلك. صعد الصباح إلى الجزيرة، وأشرقت الشمس، وحلت الساعة السابعة. نهضت وأعددت نفسي للقاء الثامنة إلا الربع.

كان كل شيء عادياً في الصباح. صعدت إلى الباص من بابه الخلفي وهناك وجدتها: جالسة في الزاوية القصوى من المقعد الأخير المخصص

للأساتذة. ابتسامتها ونظرها العريقتان التصقتا بوجهي - دونما مخالفة للأصول. وإذن فعلي أن أكثف تجهمي وجمودي والعب اللعبة بلا أخطاء.

جلست في منتصف المقعد. النظرة والابتسامة أفهمتاني أني مطلوب. نظرت إليها إمعاناً في التأكد، ثم نهضت فجلست قريباً منها. هكذا اقتضت الأصول، وحريات المرأة. لم يكن أحد ينظر إلينا على الإطلاق بعيني رأسه. لكن حشمتهم لم تكن لتخدع واحداً مثلي. كانت سمسمة الآن وسط جزيرة من الذكور في نصف الباص الخلفي. لقد قدمت جلستها المتحدية إعلاناً واحداً فقط لهؤلاء: أن آخر شيء يمكن أن يحدث في تاريخ العالم هو أن يكون بين سمسمة واستاذها علاقة شخصية من أي نوع. لذلك فهي ليست خائفة ابداً من الجلوس إلى جانبه.

مغامرة في غاية الذكاء. لكنها تطلب قدراً هائلاً من قوة الأعصاب. وفي داخلي رحت أترنح تحت وطأة الهلع.

أسندت مرفقي على ركبتي، ونظرت إلى أرضية الباص. أصغيت. لم أنظر إليها على الإطلاق. بينما مدت هي ورقة مزدوجة مكتوبة بالكامل، فتحتها أمامي وراحت تقرأ.

نظرت من زاويتيّ عيني إلى الورقة، وإلى إصبعها وهي تمر على الأسطر قليلاً ثم تقف. ومن موجات صوتها ونسيمه رأيت وجهها يتوجه إلي لحظة وإلى الورقة لحظات. وسمعت شفتيها تقولان: "اليوم الساعة الواحدة.. في معيد شمش" ادخل من المدخل الجنوبي" انتبه ألا يشوفك أحد.. الآن قل كم كلمة عن هذه الورقة لأمشي أنا بعدها.. تأخرت حتى تلفنت."

"كنت خائفاً منك." وتناولت الورقة من يدها. التجهم والجمود على وجهي صارا استياء من هذه البنت المدللة! في زوايا خفية من الباص، الأمامية خاصة، ربضت أعين وتربصت بنا. وفيما رحت أتصفح الورقة، وأمر على سطورها بسبابتي، همست هي: "كويّس.. خلّ انطباعة وجهك بهذا الشكل.. ولا تضحك: وجهك يقطع الرزق."

ذلك كان أقصى احتمالي. أحسست أني اجتزت بأعجوبة شَرَكاً مميتاً بنجوت من الضحك. بل وبنجوت من الابتسام. وأخيراً أزحت الورقة من أمامي باتجاهها، وارسلت نظرتي الكائبية إلى الممر بين المقاعد. قلت بصوت مسموع: "مشروعك جيد يا آنسة. وأنا أقبل به." وفيما تتناول هي الورقة أضفت:" إنما، يجب التقيد به تقيداً تاماً. حتى لا يفوت الوقت."

عدت إلى وسط المقعد. وعادت إلى مقعدها الأمامي.

كيف مرت خمس ساعات هي في الحقيقة خمسة اشهر؟ الله وحده يعلم. الساعات الثلاث الأولى على الأقل، كانت دهراً. وعند الحادية عشرة أعطي المتدربين شغلاً يكفيهم حتى موعد عودة الباص في الثانية. بعد نصف ساعة توجهت في طريقها قوسيّ نحو المعبد.

كان المعبد في أقصى الزاوية الشمالية الغربية من حقل الآثار، بعيداً بما يكفي لأن يمتص نصف بحيرة الدقائق التسعين الفاصلة بيننا، قريباً بما يكفي لطمأنينة الوصول قبل الموعد. لكن الطريق الذي قطعه عقلي نحو الخوف كان قصيراً جداً. الآن وقد اطمأننت على الحب غدوت خائفاً على البقاء. وكلما أوغلت في الطريق تضاءلت الطمأنينة وتضخم الفزع. رأيت الاحتمال كبيراً بأن تكون ثمة مؤامرة دنيئة من سمسمة لإيقاعي في الجرم المشهود. لقد أهنت كبرياءها حين باغتّها بتقبيلها. هذا التجرؤ بالذات يمكن أن تعتبره إهانة، هي البنت التي ألفت أن ترى نفسها فوق النفوس، وناسها فوق الناس، وجزيرتها فوق الجزر، فكيف وهي لم تبد أية مقاومة، و لم تدافع عن كرامتها، واستسلمت تماماً ليدي وشفتي.

رأيت الاحتمال كبيراً أيضاً بأنها استدرجتني إلى هذا المكان النائي شبه المهجور (لم يعد في المعبد شيء يمكن اكتشافه ودراسته) لتوقعني بين قبضات تعرف كيف تقتص بالكلمات من بدن عمره ثمانية وثلاثون عاماً، وتنتقم للكرامة الملوثة. إن تصرفها في الباص يؤكد قطعاً أنها امرأة ذات حيلة واسعة.

وبالفعل، فأي اختيار هو اختيارها لمعبد شمش؟ ـــ هذا المكان المنقطع الموحش، الذي عزلته أواخر الشاء. إنه المكان الأمثل، بأعمدته وجدرانه، لضرب الرأس. على المرء أن يحذر هذه الوجوه الساهية الداهية، وخاصة إذا كان حب الشباب قد ترك ندوباً، ليس على الوجه فقط وإنما على النفس أيضاً.

رأيت ما أثبت أن مخاوفي صحيحة كلها، لحظة رأيت سيارة سمسمة تصل إلى المعبد على الطريق الترابي. كنت قد تسلقت الحجارة حتى النافذة الطولانية القريبة من السقف، ولطأت هناك كسنحاب عرف كيف يختبئ. وشاهدت سمسمة إلى جوار شاب في العشرين يقود السيارة. راقبتها تنزل حاملة كراريسها، ثم تنحني وتكلم الشاب، ثم تنتصب وتنظر حولها؛ والسيارة تتابع طريقها بهدوء.

إذن، هناك ترتيب ما. هذا الفتى إنما انطلق ليعود بعد قليل وبصحبته ملء سيارة شفروليه من الفتيات الذين لا يسمّون بالرحمن. سيعود عندما يصير متأكداً أن وقتاً كافياً مضى لأنسى كل حذر وحيطة وأتحرش بأخته ـــ هل هو أخوها؟

دخلت سمسمة من البوابة. لم أتحرك. مشت خطوات نشيطة، ثم تباطأت، ثم وقفت. كانت ردهة المعبد موحشة. وهي تزداد عتماً في العمق قبل أن تنفتح على الغِناء في المدخل الجنوبي.

لم تعرف ماذا تفعل. أغلب الظن أنها أرادت منادتي، وتهيبت. مشت خطوة ثم وقفت. وخطوة ثم وقفت. ثم مضت همة نحو الغِناء.

هبطت من مكمني. انزلني شعور بالعار. فلأنك علقة حامية، ذلك أفضل من سلوك الجبناء. لبثت برهة بلا حراك. هل أختبئ بين ساقي الإله شمش النافرتين من الجدار الأيمن، أن أنطلق بشجاعة إلى مصيري؟ لم أدر أني في حيرتي وقفت قريباً من المدخل. سمسمة جعلتني أنتبه. ولجت ثانية من هناك، ولحظة رأتني أطلعت صيحة سلوان سعيدة. رمت كراريسها على

الأرض وانهالت ضرباً بقبضتيها على صدري. هذه المرة بدت فعلاً مجروحة الكرامة. لكنه جرح نزل برداً وسلاماً على فزعي.

طوقتها من خصرها المتقطع، ورفعتها عن الأرض، ورحت أدور بها. وإذ تعبت ووقفت، كانت هي نائمة بلا نوم، ذراعاها حول كتفي، وجبينها على رقبتي.

وقفنا هكذا زمناً. حقيقة إن ذروة الحب نوع من السكون الشبيه بالموت، الذي يليه الموت، ولا شك أن الموت عند تلك الذروة والتلاشي فيها خير من البقاء بعدها ورؤيتها تتلاشى بين أسوار الجزيرة.

"أين كنت؟!" سألت سمسمة وعيناها تخصان بالضوء الأزرق، وشفتاها تنفرجان، وأسنانها أيضاً. مرة أخرى رأيت كم هما جميلان وأنيسان ذانك البروازان الصغيران في سنّيها وشفتها السفلى، اللذان لاينجليان إلا في لحظة أمانة قصوى.

" من الشاب الذي أوصلك؟"

" أخي الصغير. كنت ترانا؟ لماذا تخفيت عني؟"

كان سؤالها عذباً. انحنيت إلى كراريسها فلممتها عن الأرض. أمسكت بيدها ومضينا إلى الداخل. قبيل وصولنا إلى الفناء، سحبت يدها ونفضتها:" هرست أصابعي!" قالت باحتجاج رغيد. وجلسنا على الصخور المتناثرة النحيتة بعيداً من المخرج.

أيهمّ ما قالت وما قلت؟ ربما لكن للذاكرة رأياً آخر. ذاكرتي أنا على الأقل ـــ التي لا تكترث كثيراً للغة وإنما للوشم على الروح. إنها تحتفظ بألف فرحٍ وفرح، وألف نكهة ونكهة، لا يمكن لألف كلمة وكلمة أن تنقل فرحا منها أو نكهة.

قلت لها إنها خرجت من غرفة المدرسين ذلك اليوم بشكل أوحى لي أن أيام انقطاعها عني كانت نوعاً من الندم وعذاب الضمير. وأكدت أن ضميرها لم يعذبها أبداً. وبجدية هي المطلق بعينه، شرحت ما بدا لي أنه أغرب كلام سمعته، وأن أغرب ما فيه ذلك الصدق اللامتناهي الذي بان

فيه:" الشيطان وسوس لي، وزيّن لي، مستغلاً عدم تجربتي، وضعفي كـأنثى. أنا لم أرد ذلك. ضايقني أنني سمحت للشـيطان بالوسوسـة لي واللعب بعقلي...ماحدث بيننا ليس ذنبي أنا؛ ذنب الشيطان الرجيم."

قلت بابتهاج ظافر إنـها لا شك عبقرية، بالإضافـة إلى كونـها جميلة، وعقلها ليس صغيراً أبداً." لو بالإمكان مقابلة الشياطين، لتوسلت إلى شيطانك هذا أن يصحبك دائماً."

"ماذا! أنت لا تؤمن بوجود الشياطين؟"

" يعني أنت تؤمنين بوجودها؟"

" طبعاً! كيف لا! أنت عجيب!"

" سمسمة! الشيطان فكرة، رمز. لا حقيقة مادية!"

" الظاهر أنك أنت وقرينك توحدتما حتى لم يعد بينكمـا فـاصل ولا فارق. وأنت لم تعد تحس به."

" قريني؟ من هو قريني هذا؟ أو أنك تقصدين قرينيَ؟"

" أنت غير معقول! ضلال الإنسان سببه الشيطان! وإلا كيف جئـت للقائك؟"

" جئتِ لأني أحبك وتحبينني."

" وسبب هذا الحب ـــ هو الشيطان!

نظرت إليها مذعوراً. وصمتنا لحظات. ثم قلت:" يعني أنت سـتندمين على مجيئك اليوم؟"

" سأطلب المغفرة من الله تعالى وأتوب. أرجوك! خلنـا مـن هـذا الحديث. لا أريد أن أفيق من هذا الحلم. شيطان أو غير شيطان."

قلت لها إننا لا نستطيع أن نبقى طيّ هذا الحلم، ولا بد من إعلانه يومـاً ما بالطريقة المألوفة. قالت إننا يجب أن نظل في الحلم لأننا ساعة نخرج منـه ستكون النـهاية. قلت إنني في الثامنة والثلاثين، وأريد أن تتمحور حيـاتي في حقيقة حب أبدية. قالت أنت متزوج.

سكت قليلاً، ثم همهمت:" وماذا يهم؟ نتزوج مع ذلك. أنت ضد الشريعة؟

هزت رأسها بالنفي. بدا لها رأيي طبيعياً تماماً. لم تعترض عليه.

سألتها: وتقبلين أن تكوني زوجة ثانية؟"

أجابت بشرود:" أنا لا أحب. لكن إذا قضى الله به، أقبله." غير أنها صفنت. شردت عيناها بين حجارة شمش، ثم هزت يدها علامة الحيرة.

كان يجب أن أقول لها:" سمسمة، أنا غير متزوج."

لم يكن للتصريح وقع الصاعقة الذي توقعته عليها. حولت نظرتها إليّ قليلاً، ثم عادت وشردت. كأني لم أقل شيئاً. أو كأن مجيئها إلي زوجة ثانية لا يختلف كثيراً عن كونها الزوجة الوحيدة، مادمت أحبها كل هذا الحب.

تنهدت وقالت:"صعب. زواجنا صعب."

قلت:" إنما، غير مستحيل."

هزت رأسها بحيرة. قالت:" خلنا في الحلم."

ولكي نبقى في الحلم، لكي أطرد منها شياطينها وأستبدل هم شياطيني، قمت إليها بتأن. ووقفت هي استعداداً للقبلة. تعانقنا ببطء. قبل أن نصير نحن الإثنين واحداً، وبينما ألثم وجهها وجيدها وشعرها على مهل، قالت بفرح وثقة" أرجوك لا تذهب بعيداً هنا، لا تحاول أن تأخذ مني أشياء أندم عليها. إذا طلبت سأعطيك. لا أقدر أن أرد عنك أي طلب تطلبه. ولا أريد. لكني سأندم. الندم أكثر شيء يعذبني في الحياة. لا تسبب لي العذاب."

كانت يداي وشفتاي تسيلان على ظهرها وبشرتها بيسر ومهل، أثناء نجواها. وكانت هي معطاة بكاملها. حقاً هي لم تخطئ عندما ثارت على فكرة لقاء الحضارات. هؤلاء النساء الملبّسات، سليلات عشتار وعناتو، يمنحن أنفسهن وحسب. يتلقين ويعطين، مثل النساء القديمات في معابد

شمش وبعل وتموز، اللواتي تكرسن لعطاء المحب. ساندرا لم تكن كذلـــك.
ساندرا اعتبرت الحب صفقة، وتصرفت بحيث تكون هي الرابحة فيها.

كان لقاء عجيباً. رحت ارود وأكتشف تكوينات جسمها، أوقظـــه، فأحس بخلجاته وانتشاءاته، وهي تستيقظ، وأتعرف عليها ثانية، وأطلقـــها، وأبتلّ بـــها. وراحت هي تمتص كل تلمس، تدفقه إلى الداخـــل كميـاه جوفية. وعبّرت حركتها عن رغبة في الوقوف بسكون مطلـــق، ولكـــن بالتصاق مطلق، وفي تجميد ساحات ذراعي وفمي ووجهي لتصير كلها قـوة احتواء.

الآن فقط يمكنني القول إنـــها هكذا تجنّحت. ربما لأن الحركة عرقلـت تدفق المياه إلى الداخل. أو لأن سمسمة أرادت الاحتفاظ ببقية مـــن الوعـــي لترى مايحدث لجسدها وروحها وتزداد فرحاً بالحياة المنبعثة فيهما. وربمـــا لأن انقضاء أربعة وعشرين عاماً جافاً من عمرها قد جفـــف كيمياءهـــا، وأرادت هي أن تشحن تلك الكيمياء بالطاقة والتيارات.

سمعنا صوت بوق السيارة يضرب ثلاث ضربات عاقلات. انتفضـــت سمسمة وخرجت من بين يدي. أسرعت تلتقط كراريسها. بحبشت بـــين الأوراق قليلاً، ثم في جزدانـــها. أقبلت نحوي حاملة ورقة من دفتر رسـائل رومنسي ومدتها إليّ: "اقرأها في البيت. وفي المرة الثانية ارجعها لي. أخـــذت الورقة بفضول، ونظرت إلى سمسمة التي همت بالابتعاد. انتبـــهت إلى أننـــا طول تلك الساعة لم نقل شيئاً! لم نتفق على موعد و لم نتقدم خطوة تفـاهم واحدة نحو مستقبلنا.

"ابق هنا ربع ساعة بعدي ولا تتحرك،" قالت واستدارت عـــائدة إلى المعبد. هتفت بـــها: "سمسمة!." فأدارت رأسها نحوي. قلت: "إذا شـــفت اللون الأزرق على شفتيك، اصبغيهما بالأحمر الغامق. وقولي إن فمك لطـم بباب الباص. هزت رأسها وانطلقت بتلويحة قصيرة من يدها.

صرخت: "متى سنلتقي؟ اتصلي بي في الليل. قبل الساعة الرابعـــة. لا تنسي!"

كانت قد غابت في العتم. وعرفت لحظتها أنـها في الحقيقة غـابت فور سماعها لبوق السيارة. انقطعت عن كل شيء. كأنما تماساً خفياً أوقـف شحن الكيمياء. كل شيء فيها تغير مذ سمعت ذلك البـوق الإسـرافيلي. تلفلفت بالهدوء والقوة، بالنبرة الحاسمة، بالحركة المحسوبة المهيبـة، بالوجـه الذي تقنّعه ابتسامته السادرة..

سمعت شخير السيارة المغادرة. صار المكان موحشاً ومضنيـاً، وغـير حقيقي. أعني ، تلاشى منه ما كان قبل دقائق يجعله مهرجاناً وليس معبداً.

وقفت في ذلك الفناء وحيداً متوحداً: ما معنى هذا؟

ـ ٥ ـ

عشرون يوماً مضت بعئذ و لم نلتف. كان الربيع يمرج خلف أبـواب الشتاء. وكل يوم مر كان فرصة حزينة وحسب لأن أتـأمل الأعشـاب والأزاهير في نتوئها الوطيد الغافل.

(أن أكون ضعيفة يعني أن أكون حرة. أن أكون ضعيفـة يعـني أن أكون جميلة. رأيت حشداً من أغصان النرجس. وكلها اقترب مـني وراح يلامس جسدي وراح يداعب جسدي ويقول له: صباح الخير.)

هكذا كتبت سمسمة في ورقتها الرومنسية. ورقة ليلكية ارتسم علـى زاويتها العليا إلى اليمين سهل خفيف اللون خفيف التموجـات، وعلـى زاويتها السفلى إلى اليسار، رأس فتاة مطأطئ فوق دفتر.

الأيام الثلاثة الأولى مضت انتظاراً. وفي اليوم الرابع انفجر الانتظـار. رفعت السماعة، ودورت الرقم. جاءني صوت أجـش غـارق. أعـدت السماعة. كانت الساعة الثالثة بعد الظهر. وتساءلت محنقـاً: ألا يتعـاطى السيد قاسم الحميدي القيلولة ياترى؟

(هجرتني قوتي فلم أخف. مباشرة بعد هجرها تدفـق نهـر ومـلأ مكانـها. كم أنا أحب ضعفي وأبغض قوتي. قوتي ثلاجة انغلقت علـى جسدي. جاء النرجس وفصل الكهرباء عن الثلاجة. تمدد جلدي. اتسـع

جسدي، خرجت إلى الفضاء. لامسني الهواءِ والضوء والألوان. رأيتني ضعيفة واهنة، فتمددت على ذراعي النسيم.)

حاولت الاتصال في الخامسة، ثم في السابعة. ثم في اليومين الخامس والسادس، كل نصف ساعة تقريباً. لا فائدة. إما صوت أجش غارق، وإما صوت مبحوح هرم.

أخيراً رن جرس هاتفي. كانت الساعة الواحدة إلا الثلث ليلاً. نظرت إلى الجهاز وللتو عرفت. احتقن صدغاي بالماء والغضب.

ثم: السماعتان مرفوعتان ولا صوت؛ هدير ولكن غير مسموع عبر هذا اللاسلك الناحل الذي يصلنا عبر الفضاء؛ أنفاس تنقلها السماعتان.

"قل "ألو" وخلصني!" هتفت هي نافذة الصبر.

"عندما تتخلين عن هذه الوحشية في معاملتي. لماذا يا سامية؟"

"ليست وحشية،" هتفت بصوت أقرب إلى النجوى.

"ليست وحشية؟ ماذا هي إذن؟ معروف تعملينه معي؟"

"أنت قلتها. معروف واعمله مع حالي أولاً. أنا لا أقدر على تحمل الندم. لا أقدر. هذا كله مستحيل. أنت لن تفهم. أنا دربي غير درب الشيطان.."

"أي شيطان وأي ابن آدم وأي آلهة!"

" أعرف تفكيرك، أعرف. اسمعني أرجوك. واحد من أهلي يمكن أن يفيق في أي لحظة. صدقني أرجوك. واسمعني. في الصباح الباكر يصير تلفوننا تحت المراقبة. لا تتصل. سيعرفونك.."

"سأظل اتصل حتى لو وضعوا سكاكينهم على رقبتي. أو نتقابل."

"طيب. بكرة في غرفتكم الساعة حوالي الواحدة."

ثم انقفل الخط.

(هجرتني قوتي فدبت الحرية في جسدي. الحركة والجمال. أنا جميلة جميلة. لبست الزرد والتروس ووقفت أمام أعينهم السعيدة فرأيت فيها وجهي الذي غاض منه الضوء والألوان. أو صدت عليَّ باب غرفتي

وفتحت جسبدي الضعيف للمرآة فرأيت وجـــهي مضمخــاً بــالنرجس وجسدي مضرّجاً بالفراشات.)

لم تأت إلى موعدها. وبالطبع لم أهتف. إذا عرفوا اسمي خســـرتها إلى الأبد. وربما آذوها، بأساليبهم الخاصة. وآذوني أنا أيضاً.

كل صباح، في الثامنة إلا الربع، كنت أراها بوقفتها المعتادة في الباحـــة الداخلية. ندخل القاعة ونبدأ التفقد، فإما شروح نظرية بعـــده أو انطـــلاق بالباص. منذ ذلك الحين لم تعد تبتسم. لم تعلق عينيها بوجـــهي وتمشـــي كأنـــها تتحاشى شراً وبيلاً. لقد انتهى ما بينـــها وبين ذلك الشر.

قلت لنفسي: وماذا يعني؟ أي شيء هو التعلق ببنـــت أبقاهـــا أهلـــها مراهقة، رغم أنـــها في الرابعة والعشرين؟ مازالت تعتقد أن للشيطان جسماً مادياً! وتحتاج إلى أن أسقيها بملعقة الشاي كل ماهو من منسيات ســـاندرا تواراّديغيني! لو حتى ناتالي ساروت كتبت قصتها، لخرجت القصة جوفـــاء وبليدة. عشق تافه وقلق تافه وتضييع وقت.

قلت: آه لو أن أمي قادرة على الحوار معي في هكذا أمور. كيـــف أن أفهمها أن الأرماس لا تتزوج وإنما فقط تندثر.

في اليوم العشرين جاءت سمسمة. كنت في غرفة الأساتذة، وقد فرغت لتوي من مناقشة آخر طالب في مشروع بحثه. ولأن الصمت المبـــاغت لاذ بي وعداً ثقيلاً، تحركت إلى الشباك المطل على الممر الثالث، وجلســـت إلى الطاولة هناك. كانت الشغالات قد جئن إلى الغرفة بتواتر محسوب. وهكـــذا استبدلت سلة المهملات، ثم نفاضات السجائر، ونظفت غرفة الحمـــام، ثم استبدلت السلة ثانية بعد أن رميت ورقتين فيها، ثم كنست الغرفة في وقـــت الاستراحة..

ثم دخلت سمسمة. ابتسامتها على وجهها. ووجلها في عينيها. ولكـــن ماذا يفعل الابتسام والوجل وسط خضم من الغربة أغرق ملامحها؟ كـــانت بعيدة تماماً، ولا علاقة لها.

أحسست أنني خرجت من قبر. لكنني وأنا أتفرس في وجهها المتقــدم مني، أحسست أنــها ماضية، لا لتراني، وإنما لتأخذ المكان الذي كنت فيه آه! ذلك هو حقاً الوجه الذي أحبته يداي وجوارحي.

وصلت إلى المكان المناسب ووقفت أمام الطاولة. وقالت بصــوت لا نبرة فيه: "جئت آخذ رسالتي." نظرت إليها مندهشاً وراجيــاً أن تكــون مازحة. لم يختلج وجهها بأية أمارة. امسح بالقوة والهدوء. حتى الابتســامة غابت.

"الرسالة ليست معي،" قلت باطمئنان.

"أرجوك. الرسالة مشكلة كبيرة بالنسبة لي. والشيطان له طرقــه. اذا وقعت في الأيدي.. وخاصة بعدما أكون تزوجت.. من فضلــك أعطــني الرسالة."

"والله الرسالة في البيت!" قلت محاصراً. "أنا من حرصي عليها أتركــها في البيت.. مع أني أحب أن أحملها معي."

صمتت ووجمت. لا بد أن قسمي هو الذي أسكتها. للحظة طـاف في وجهها طائف من التردد. غير أن القوة واليقين عادا إليه. قالت: "بكــرة، إن شاء الله؟"

لم أرد. حدقت في وجهها ـــ في حب الشباب، والبرونز، والبحــيرتين الزرقاوين. قالت بهدوء: "بكرة، إن شاء الله؟"

قلت بأسى: "لماذا إصرارك؟ تعرفين أني يمكن أن أصورها."

"لا تصورها. لا تندّمني على ثقتي بك." وأضافت: "هي أصلاً مكتوبــة لي. هذه الرسالة أنا كتبتها لنفسي."

"خلص. بودك استردادها، تعالي بكرة وخذيها. الرسالة ليست معي."

"الساعة الواحدة؟"

هززت برأسي موافقاً.

كان ينبغي أن تلتفت وتغادر الغرفة. لكنــها لم تفعل. للحظة خاطفــة ومض في عينيها أسى وبلحظة خاطفة أخرى صار سخرية. غير أن الأســى

عاد. وكيف لا يعود! كان مستحيلاً عليها أن تنجو من أمواجه التي اندفعت مني نحوها.

ابتعدت خطوتين وهي تقول: "مع السلامة." ولعلها أملت أن أفك عيني عنها غضباً أو كبرياء، وأشيح بوجهي نحو النافذة، غير أنني لم أفعل. لم يكن أي غضب أو كبرياء ليمنعاني من أن أراها في تلك البرهة وأراها وأراها.

ظلت واقفة. كل شيء بي، إلا اللسان، قال لها أن تبقى، فبقيت. وما لبث وجهها أن اكتسى بالرجاء. تراجعت منه القوة، سرى فيه رونق وخفقان.

دخلت الشغالة السمينة. كان بيدها مكنسة ذات عصا طويلة، وسطل فارغ. واتجهت إلى غرفة الحمام.

للتو قالت سمسمة: "أنا ممنونة، أستاذ. بعد يومين إن شاء الله، أجيء لك بمشروعي." ومشت.

دخلت الشغالة غرفة الحمام، وواربت الباب. وصرت أنا لغماً. وراحت سمسمة تمشي. مشت حتى الباب ثم التفتت ـــ ليس للوداع بل لتتأكد أنها خرجت من طورق عيني. وكانت عيناي قد عادتا إليها ـــ لم تكن بي شدة ولا غضب، بمجرد ضراعة وذهول. وقفت سمسمة بين الممر والباب. واستوقفت عيناي عينيها. خمس ثوان، ربما. أو ربما دقيقة، ثم أدرت رأسي بحركة تلقائية إلى باب غرفة الحمام، ورأيت الشغالة تخرج خالية اليدين من عصاها وسطلها. التفت إلى الباب. فلم أر سمسمة.

عندما جاءت في اليوم التالي، لاحظت كم غدت نحيفة. لم تكترث بتعبيرات عيني عن اكتشافي الجديد. وقفت أمام الطاولة، وترقبت. أعطيتها الرسالة. وضعتها في جزدانها ومشت.

في منتصف الغرفة التفتت. وكانت عيناي تتشبثان بها. لا شك أن ذهولي أحبط شيئاً ما في قوتها المستعادة الجاثمة. توقفت.

"ستتزوجين؟"

هزة رأس صغيرة إلى اليمين، وحركة أصغر في الحاجبين.

"أحد أبناء عمومتك، تقدم أخيراً؟"

صمت، عينان خاليتان، ولكن تنتظران مزيد من الكلام. إذن انتهى كل شيء. قلت: استبقيها بالكلام قدر ما يمكنني. ربما كانت وقفتها أمامي الآن هي الوقفة الأخيرة.

"وأبوك موافق؟"

"أبي غير مهتم بزواجي."

أقبلت الشغالة الطويلة. تقدمت، وفي المكان المناسب تمتمت، ففهمنا أنها تلقي السلام. وضمت إلى غرفة الحمام.

قلت بسرعة: "بماذا هو مهتم إذن؟"

مشت سمسمة بسرعة، وجلست على الكرسي الموازي لطاولتي من جهة اليمين. فتحت كراريسها على الطاولة، وألقت بنظرة سريعة إلى الحمام ثم إليّ.

خرجت الشغالة بمكنسة البارحة وبالسطل. نظرت سمسمة إليها وسفعتها بنظرة كانسة. وحقاً فقد ارتبكت المرأة واسرعت تغذ الخطى إلى الممر.

ابتسمت سمسمة. كان واضحاً أن لها سلطة ما (عائلية بلا ريب) على تلك المرأة المهلهلة. وخيل إلي أننا بتنا في مأمن من الشغالات.

وضعت سمسمة يديها على الطاولة بإلفة حميمية مفاجئة. قالت: "لازم تفهم هذه النواحي أرجوك. واحد من أبناء عمومتي سيتزوجني، هذا لا خلاف عليه. هذا ولا شيء.." وصمتت قليلاً. بدت مرتبكة، ربما بسبب تخيرها للكلمات.

"لكن أنت لا تحبين أي واحد منهم" قلت بثقة وإفحام.

"لايهم. المهم أن أكون زوجة شريفة. وأن يرزقني الله أولاداً."

قلت: "حتى الآن، لم يتقدم لك أحد منهم!"

هزت رأسها هزات قصيرة، وقالت بلا اكتراث: "في يوم من الأيـــام، يتقدم." وابتسمت فأضافت: "رغم حب الشباب." ثم نهنـــهت بضحكـــة قصيرة: "يحبون الأوروبيات أكثر. من نوع الدكتورة ساندرا."

"لكن أنت أوروبية!"

ارتبكت ابتسامتها: "بالشكل. والحمد لله. عقلي هو مع ديني وبلـــدي، إن شاء الله."

صمتنا. رحت أضرب بإصبعي على حافة قدح القهوة، مطرقاً وغـــير واجد كلاماً. ثم قالت هي: "لا تظن اني مجبرة على الـــزواج." وأضـــافت بفخر: "بابا لا يجبرني على شيء." وبعد قليل نبرت بشغف وحنين: "بابـــا يريد بس نجاة روحي من الهلاك. لا يهمه أي شيء ثان. وأنا في كثير مـــن الأحيان أسأل حالي: ماذا أستفيد من هذه المظاهر؟ سفور، ودراسات عالية، ولقاء بأنواع الناس.. مادامت درب الإيمان هي درب الخلاص الوحيـــدة. اسأل روحي: إلى متى أؤخر تحجبي. لماذا لا أنتهي من الشيطان، وارضـــي ربي وأبي. أبي يتمنى عليَّ أن أتحجب."

بدا وجهها رصيناً وعيناها سارحتين. كأن أباها قد حضر معها بأكمله وحوله مئة من الملائكة. ثم أطرقت تستجمع قواها: "في الفترة الماضية حيلتي اضطربت كثيراً. الشيطان عذبني. لو.. لو صار بينا ارتباط، لن نخلص مـــن الشيطان أبداً. أبداً. سيأخذنا إلى الفنادق، والبارات والمسابح. وليس القصير والحفلات الصاخبة.."

صمتت. نظرت إليَّ نظرتها الأولى التي لاقتني بـــها أول مرة. كنـــت حزيناً وأكاد أختنق. لم أعرف كيف كانت تعابير وجهي. لكني أحسســـت بامتنان لأنـــها توقفت عن الكلام ورمقتني بنظرتها الأولى تلك. أحسســـت بالامتنان لأنـــها لمست ـــ ولو أنني لم أصدق ـــ أن القوة والصرامـــة في ملامحها هبطتا وغارتا. قبلت بالاشفاق الذي طالعني بدلاً منهما، فحتى هـــذا التعاطف المهين كان أخف وطأة من القسوة والانتهاء.

أن تحب امرأة هو بالتأكيد أجمل تحققات العمر. لذلك أحسست وقتها بأن كياني كله، وحتى وجودي، يندحل تحت آلة جبارة صماء هاجمة. ورأيتني ألتقط، دفاعاً عن نفسي، القوة والصرامة اللتين فارقتاها.

نعم، أحسست بالقوة. وفي تلك اللحظة غدا واضحاً لي أن الشغالات لن يأتين إلى الغرفة، دون أن أعرف السبب. اسلم نفسي لترعة شمشونية مهلكة: علي وعلى حبيبتي يارب. قبضت راحة سمسمة، الممدودة على ركبتها الثانية. بسرعة، أدخلتْ شفتها السفلى بين اسنانها، وارتفع حاجباها باستغراب مؤنّب.

قلت لها بغبطة مارجة: "أي حجاب يطلعني منك ياسمسمة بنت قاسم الحميدي؟" وجهها أيضاً استرد القوة والصرامة. قالت باقتضاب: "الندم. الندم يطلعك. إذا خليتني أندم كرهتك إلى الأبد."

نهضت إليها بلا توان. وصدّت هي تقدمي بعينيها. قالت بالتياع: "أنت تستهين بي.. تستهين بعذابي."

قلت: " أنا سأستهين بآلهتي. لكن لن أستهين بحبي لك."

فجأة تعرت أساريرها . وابتسمت: "لكن بلا تبويس".

قلت: سأنادي للشغالة وأقبلك بحضورها."

التقطتها من زنديها النحيلين ورفعتها. نهض جسمها. قلت: "شيء واحد بس يخلصك مني. أن تموتي أو أن أموت." وهمَّ فمي بشفتيها.

هتفت بارتياع: "ليس هنا، ليس هنا! في الحمام!"

قدمًا إلى الحمام. مشيت بها مرفوعة الذراعين كالأسيرة. أغلقت علينا الباب. هممت بتقبيلها، فحشرت أصابعها بين فمينا: "المرة الماضية، لولا ثقتهم بي، كانت قامت القيامة. لأن شفتي ظلت زرقاء أربعة أيام."

"ماذا حدث؟"

"ثانية واحدة بس، بقيت بيني وبين الفضيحة. لأني أنا لا أكذب، وكنت سأقول لهم.

" وبعدها؟"

"وبعدها جاءتني قوة لا أعرفها من قبل. من الشيطان حتماً. وكذبت كما لو أني أكذب طول ألف سنة. كذبت بدم بارد، وبلا مبالاة. وصرخت بوجههم بعدها: ما هذا! استجواب؟ قعدوا وسكتوا."

ضممتها إلى صدري. كل لحظة كان حقيقية، كل حركة. سمسمة كانت ايضاً حقيقية. ظلت حوالي دقيقتين مسبلة الذراعين، والبدن ايضاً. وكنت أسند ظهري على الباب حتى إذا حاولت الشغالة أن تفتحه فجأة اكتشفت أنه موصد تماماً. لكن سمسمة رفعت ذراعيها إلى كتفي، ودرنا ببطء حتى استندت هي إلى الباب. وعندها تسللت يدي داخل سترها. وظلت هي حقيقية. لأول مرة ألمسها بهذا الشكل. لأول مرة تتصاعد أنفاسها مع اللمس، وتتخثر وتسخن وتشهق ــ شهيقاً خفيفاً أقرب إلى الأنين، أو البحة المديدة المكظومة. لم تنفر، لم تنقط، حتى عندما ارتادت يدي ظهرها وردفها ونهدها. لم تكن مثلي تتذكر الشغالات بين دقيقة وأخرى.

هناك شيء ساحر وطازج في أن تلمس جسداً بكراً عاشقاً.. أن تمرر راحتك على كل خلية فيه فتتفتح كعباد الشمس للمس النسيم والضوء.

غير أنها استوقفتني أخيراً. همست بخوف نائم: "هيثم.." لأول مرة تلفظ اسمي عارياً.. "هيثم! أريد أن أعطيك كل شيء. ولكن ليس هنا."

رفعت شفتي عن جيدها، وقلت: "ستطلعين من هنا ولا تعودين." فتحت زرّ سترها ورحت ألثمها هناك.

"هيثم. أريد أن أعطيك كل شيء. هذا وعد."

رفعت رأسي مرة أخرى. أطبقت بيدي على أضلاعها: "الآن. حتى لا نفترق أبداً. وعدت ألثمها.

" خذ خاتمي. أنا أخطبك لي، لسمسمة. خذ الخاتم."

انفككت عنها. أخرجت الخاتم عن إصبعها ووضعته حول خنصري." وسأعطيك معه رسائل جديدة."

"تجيئين إلى بيتي؟"

" إلى بيتك مستحيل. واحد من الناس يشوف السيارة وننفضح."

"سمسمة! خلينا الآن نفرض مستقبلنا ونخلص."

"أنا لا أكذب عليك. سأجيء."

" إنما أين؟"

"في بيت عناتو. بكرة الساعة الواحدة."

"أي بيت منـــها؟ عناتو له ألف بيت!"

"بيت ساندرا كواراّديغيني."

مصعوقاً وفاغراً الفم نظرت إليها. ومبتسمة ومتشفية نظرت إليّ. "أنـــا التي دللتها على مكانك ذلك اليوم." طأطأت وزررت ســترها. امتلكــت الموقف الآن: "اخرج إلى الممر دقيقتين، ليبدو أنك تأدبت وخرجت بســبب دخولي التواليت. أكون أنا طلعت."

"أنت تعرفين هذه الشغالة؟"

"أبي توسط لتعيينـــها. أنا زَوَرْتها حتى لا ترجع."

صدعت بالأمر. بعد ذكر ساندرا صرت حَمَلاً. خرجــت إلى الممــر دقيقتين. كان هناك عابرون وزائرون. لكن الشغالات كن غائبات. عـدت. وجدت سمسمة جالسة على الكرسي نفسه - بابتسامة المفرحـــة الرائعـة وعينيها المؤنبتين: "كل رقبتي بقع حمراء. أكلت صدري يامتوحش! يـلتلميذ الطليان!"

ناولتني رسائلها. وفي تلك اللحظة داهمني وعي مفاجئ. خطر لي خاطر صاعق. إن بوسع هذه البنت المغمضة أن تخفي بحرا من الأسرار. إذا كـانت كل هذا الوقت تعرف سر ساندرا كواراد يغيني، و لم تظهر من ســـلوكها نثرة تشي بهذه المعرفة، فأية اغوار يجب علي أن أخوض لأصـــل إلى قـــرارة نفسها؟ إذا كانت بغمضة عين تتحول من عاشقة إلى متزهدة وبـــالعكس، وإذا كانت تعاني في العشق حالاته القصوى وفي التزهد حالاته القصـــوى، فكيف لا تحس بأنـــها يسكنـــها شيطان؟

سألت بتوجس مبتسم: "بماذا تفكر؟"

قلت: "أفكر برسالتك الأولى، يوم سألتني بها عن سر اهتمامي بك."

ابتسمت بفرح: "شفت؟ شفت طرق الشيطان؟"

وقلت : "وأفكر بيوم تكلمت معي في الموسم الماضي."

أخذ وجهها يطفح بالسعادة: " أنت الآن كشفت كل أسراري. شايف؟ شايف كيف جرجرني الشيطان إليك؟"

قلت بنبرة: "فإذن، لأي سبب تعذيبنا نحن الإثنين؟ مادام شعورك هكذا من البداية، ومادام أبوك لا يعارض اختيارك لزوجك!"

"هيثم! هتفت بضراعة. "ضروري يعني تعكر صفونا وتكدر مزاجنا؟"

"أنا سأكون لك، وأنت ستكونين لي — من حقي أن أفهم."

ظل وجهها يطفح بالفرح، ولكن مع مسحة من التعنت: "استاذ هيثم، لا تلعب بالنار أحذرك! التنقيبات ممنوعة في المناطق البركانية."

ابتسمت لها وقد أطلّ الحب مني بدل الشك: "الآن أنت تجاوزت الخط الأحمر. الآن أنت صرت بنت عشتار وأفروديت، لا بنت شمش وإريشكيغال."

نبرت بغضب متسامح: "إريشكيغال؟ من هو هذا الاسم؟ يامصيبتي ! له علاقة ببحثي؟ "هي آلهة العالم السفلي، لكن دعينا منها. حاولي الآن أن تفهميني بكلمات بسيطة: إلى متى انقلاباتك العنيفة ضد حبنا. احكي لي ببساطة كل ماصار معك."

انفتحت بحيرتا عينيها بإمعان هادئ. ثم اضطربتا قليلاً، وترددتا. لكنها أخيراً قالت: "يوم الرسالة الأولى.. أنا بنت بريئة، صدقني. ولا يمكن أن افعل فعلة شنيعة كهذه.. رجعت من عندك إلى البيت وبكيت. بكيت، بكيت حتى احمرت عيوني وبعدها تبت. صليت مئة صلاة زيادة ليغفر الله لي. ولولا شوية صغيرة كنت تحجبت. وفي المرة الثانية قلت: استسلم للشيطان قليلاً، وبعدها أتوب. بصراحة قصتك مع الدكتورة.. فاهم علي؟.. أني أنا.. وبعدها أتوب.. ياما بكيت ياما سهرت الليل

وبكيت. بكيت حتى وجعتني خواصري. رأيت حالي أني صرت أتشجع على الاستسلام للشيطان والسعي إليك، لأن باب التوبة دائماً مفتوح. أمي لاحظت. هي قالت لي من الأول، هذه الدراسة يمكن توقعك في الحب، ويمكن مع رجل لا يصلي ولا يصوم ولا يخاف الله. لاحظت أمي، وسألتني يا بنتي حصل الذي خفت منه؟ أوقعك الشيطان في الحب؟"

قلت بعصبية ساخرة: "الحب، يعني الشيطان؟"

قالت: "طبعاً، لأن المحافظة على الطهارة والعفاف أهم من الحب والخطيئة.

قلت بيأس: "يعني أنت لن تجيئي بكرة. ونحن لن نتزوج أبداً. لأني فعلاً لا أصلي ولا أصوم، وأحب الله ولكن بلا خوف."

هتفت سمسمة: سأجيء! وحياتك سأجيء! أقسم بربي سأجيء! وسنتزوج!"

"والشيطان؟"

"لا يهمك. أنا عملت حسابي. بكرة. خلّ حبك يعطيني قوة جديدة. لكن لا تتمادَ معي. لأني سأقتل حالي إذا تماديت.."

"لماذا في بيت عناتو؟ تعالي إلى بيتي!"

"بأي حجة اترك بيتنا إلى بيتك؟ سيلحقون بسيارتي بينما هناك نكون مطمئنين. واشهد ربنا على حبي. لكن أنت، أعطني قوة جديدة. سأتعرى لك.. حتى يعيش حبك في جسدي.. وبلا ندم. أنا لا جلد لي على الندم."

"والشيطان؟"

"لا يهمك منه. أنا عملت معه اتفاقية."

ملأتني الحيرة. وتطلعت إلى سمسمة بفضول: "يعني، مثل كل مرة، ستتوبين؟"

زغردت بفرح طاغ، وهتفت: "يا إلهي! أنت عبقري! لكن سأتوب بعد ثلاثين سنة. سيكون عمرك ثمانية وستين. ويومها لن أسأل عن الشيطان بتاتاً. والله سبحانه سيقبل توبتي. سأصلي كثيراً ودائماً وأفعل الخير

وأتحجب، لأني مشيت في طريق الشيطان، وسأصلي لك لأنك لا تصلي ولا تصوم.."

هتفت، لنفسي أكثر مما هو لسمسمة: "يا إلهي! نحن في عصر عناتو وإريشكيغال، أو في القرن العشرين؟"

وكانت هي تقول: "وسأحبك بكل حرية. وسأحبك بكل حياة."

ـ ٦ ـ

الورقة الأولى:

(الساعة الآن الخامسة و لم أنم. كيف أغمض عيني عن جمالي؟ هل أغفل عن هذا الجمال الذي اكتشفته يارب؟ كيف أخرجه مني لأعرف الهدوء وأنام؟ قلبي مضطرب. جسمي يرتجف ويهتز. وفيه رهبة خوف ألم. أحب الخوف. أحب مياهه الباردة حتى في هذا الشتاء. أفتح للألم بابي ليكنس مني نفاياتي. هناك شيء ما، نسيته. خنقته ووأدته تماماً ودائماً. أنا سمسمة. أنا ملك نفسي. مكتفية بنفسي ولا حاجة لي بأحد. بإمكاني أن أمنح وأهب كل مشاعر الحب والسعادة والحنان لأي طفل، لأي امرأة، لأي رجل. لكني مكتفية بمنابعي. وإبليس سيخسر عندي رهانه مع الله.)

الورقة الثانية:

(أعيش في عزلة تامة فوق جبل شاهق وبعيد. أقطع في غرفتي طرق العالم. أكتم صوتاً واوقف حركة وأغمض عيناً. هذا الدرب المجهول يعلمه غيري تمام العلم وأنا أعذب نفسي طوعاً واختياراً. لن أترك للشيطان أن يزعزع إيماني ويذل كرامتي. منفردة ووحيدة أنقر في حجر صلد ميت. أين هي الحياة الخالصة؟ أين مفاتيح حياتي؟ وراء كل باب يقبع شيطان. أتفرج على جسدي وهو ينكمش ويتضاءل. أرتاح لقرب خلاصي. خلاص سيوصد المداخل التي يعرفها الشيطان جيداً.)

الورقة الثالثة:

"طفولتي عقد خالص. نظمت لؤلؤه وخرزه وجواهره من مجموعة أحلامي الثمينة النادرة. نظمته بإتقان ومهارة كبيرتين. ليس كغيره من العقود. إنه عقد براءتي وطهارتي. إنه قيدي الحبيب الذي حفظته في صندوق ألعابي الصغير، قلبي. مازلت حتى الآن أتفقده كل ليلة. وخاصة عندما يكتمل القمر. أتفقده وأبكي.)

الورقة الرابعة:

(الساعة الآن الخامسة و لم أنم. أيها الخوف تعال إليّ فهذه الطمأنينة تميتني. منذ عهد بعيد لم أشعر أنني جميلة. وجهي أغرقه البكاء وعيناي تجرحتا. الخوف هو أقصى الشجاعة. والطمأنينة هي الاستسلام والذل. تعال إلي وايقظ جمالي. يجب أن أضحك إلي بكل قوة لكي تتحرك في روحي دورتها الدموية. افرك وجهي بأضلاع النرجس ليصير لونه كلون الشفق، وبشرتي بأشعة السَحَر لتمتلئ بالقلق مع مجيء الصباح. للجمال ذراعان تطيران به: القلق والخوف. أخاف على حبيبي وأخاف منه. وأخاف من حبي له وأتشبث بحبي له، لأني لولاه لما كنت جميلة. حبيبي هو الأصيل وهو السحر وأنا اللون والشعاع. قلت لأمي اتركيني اذهب إلى حبيبي فأنا أكره بياض الصمت أكره برج القوة وأحب قوس القلق. قوس القلق يقذفني في الفضاء نحو حبيبي فأفرح لأني سأطوقه بإكليل من جمالي وأرشه بعطر جمالي وأنثر عليه عقدي الخالص.)

في اليوم التالي دخلت سمسمة المعهد بصحبة أمها، التي كانت تقود السيارة. سيارة أخرى لعلها للأم. وهكذا أيضاً غادرتا. منذ البداية رأيت وفهمت، وفهمت ثانية عندما لم أر على وجه سمسمة الابتسامة ولا النظرة الزرقاء.. كل دقيقة كنت أفهم. فهمت حتى أوشكت أنفجر من الفهم، مثلما هي أوشكت أن تهوي من العياء. ويوماً بعد يوم فهمت أيضاً أن الأم لم تكن دائماً تغادر المعهد. في كثير من الأحيان بقيت

داخل تلك الأسوار الشامخة حتى نـهاية الدوام، أو عادت إليها بعد ساعتي غياب وقبعت هناك تنتظر ابنتها المهددة.

شخصياً، تقيدت بالموعد، مشيت ببطء إلى بيت عناتو كوارّاديغيني. أمام المهبط شعرت بسخف شديد. إذا هبطت هذا الدهليز الفظيع، سألج الجوف الأرضي الذي كان لي يوماً أسعد الأمكنة في العالم. وجدتني خائفاً وضعيفاً. سيكون نوعاً من التعذيب الذاتي هذا النـزول. سيهزمني قهر لا حدود له بسبب امرأة أضعتها إلى الأبد، وأخرى ستضيع مني إلى الأبد. وأنا لم أعد أتحمل. كانت الآثار حولي في كل شبر تقريباً. و لم أجدني مختلفاً كثيراً عنها: حجارة ضخمة منحوتة، أعمدة صوانية، أنصاف وأرباع جدران، وكل تلك الأشكال الجميلة الميتة التي خلفتها الانهيارات.

جثوت وظهري إلى المهبط. أمضيت بضع دقائق أتأمل الأعشاب والأزهار البرية المتطاولة بين الخرائب. وعبثت بأقربها إلى يدي. ثم وقفت منـزلاً يديّ في جيبي بنطلوني. بين الحين والحين خالني أمل شاحب بأن سمسمة ستجيء. وأوشكت غير مرة أن أهبط إلى البيت، حتى إذا أقبلت من بعيد ستكون وحدها ولن يشتبه بها أحد. وفيما بعد، بعد شهور وسنين، حينما كان ينـهار كل شيء في ذاكرتي وأعجز عن الفهم، كنت أقول لنفسي إنني لو هبطت لكانت جاءت، إنني بوقوفي هناك جعلتها تخاف من الاقتراب لئلا يرانا ثالث في مساحة واحدة ويجعلنا طعاماً لنيران الأتقياء.

عدت في الساعة الثانية. وبعدها لم أدخل أياً من بيوت عناتو.

وهذا هو آخر الكلام. بعد ذلك لم نلتق أنا وسمسمة وحدنا أبداً. ظللت أياماً عديدة اتوقع مجيئها إلى غرفة الأساتذة لكي تسترد الأمانة: خاتمها وأوراقها. لم تأت. استغربت بادئ الأمر. لأنها في المرة الأولى، وهي مرتدة إلى "قومها" ومتحصنة بمنعتها ضد الشيطان، آمنتْ إيماناً

مروعاً بأني سأشهر بـها بسبب تلك لرسالة وافضحها في سائر أنحـاء الجزيرة ـ فكيف الآن، وبحوزتي منـها اربع رسائل، وخـاتم عليـه اسمها؟ كيف، وأنا لست بمنجاة من وسوسات الشيطان؟

في الحقيقة، خطر لي هذا الخاطر أكثر من مرة. لقد انقلبت حيـاتي تماماً بعد خروج سمسمة منـها. وكلما أقبل صباح ورأيت أمها تجـيء بـها في تلك السيارة، كان حقد فظيع يروبص عليّ ويوشك أن يدفعني إلى انتقام مدمر. لكن برودة التعقل سرعان ما كانت تحاصر الهيـارات شمشون. وكنت أقول لنفسي: لديك خمسة تذكارات منـها. وما دامت هي لم تطالب بـها، فهذا دليل على ثقتها بك وإيمانـها بشرفك. بـل هو دليل على حبـها لك، رغم أنـها لم ترد على هاتف واحد مـن هواتفك ـ هذا الحب الذي لم يستطع أن يكون أكثر مـن ذكـرى. واقول لنفسي: لو أمكنـها أن تفلت من تلك الرقابة المحكمة لجـاءت وطالبت بالتذكارات. وأقول لنفسي: إنـها الآن تراني الشيطان بعينـه. واقول، وأقول..

في الشهر الأخير صرت أرى سمسمة لمحاً وصلافة. حتى بحثها أرسلته مع زميلة لها. وكان مستحيلاً أن اسأل أي سؤال لذات الوجه الأنجحـم تلك.

بانتهاء الموسم بات مؤكداً أن فصتنا انتهت. لقد انتصرت سمسـمة على الشيطان. أقيمت حفلة التخرج، ولم أحضرها. وتلكأت في الجزيرة أسبوعين آخرين، غير قادر على العودة بالتذكارات فقـط ـ وقـد صارت تعني الانتهاء الحزين لفرح بدأ كبيراً وشامخاً.

في ذلك اليوم السابق للرحيل فقط رأيتها. كنت قد أنهيت شـغلاً في مديرية السياحة بسرعة غير معتادة، وعزمت علـى زيـارة المتحـف. ورأيتها. هي وأمها كانتا تمشيان على الدرب المرصوف ببلاط حجـري وسط حديقة المديرية. تنحيت لهما جانباً لكي تمرا. وحمدت الله علـى

وجود هذا التهذيب في حياتنا، فقد أعطاني فرصة طبيعية للوقوف والتماسك. مرّتا دونما حتى نسيم صغير يهب بالمعرفة. كنت نكرة تامة، وبصورة مطلقة، بالنسبة لهما. وعندما التقت عيناي ببسمة سمسمة بالمألوفة ونظرتها الزرقاء، كان واضحاً أن النظرة والبسمة بدأتا قبل أن تصلا إليّ بزمن طويل. وقد وصلتا إليّ مثلما وصلتا إلى أسوار الحديقة وحيطان المبنى.

كانت سمسمة محجبة. شعرها البرونزي اختفى داخل عمامة بيضاء، والعمامة البيضاء اختفى معظمها تحت وشاح اسود، والوشاح الأسود التفّ كالقماط على الخط الفاصل بين وجهها وبين أذنيها وعنقها، ومن عند نهاية الحاجبين. الملابس الباقية كلها سوداء سوداء.

ظللت واقفاً بعد مرورهما، والتفت. كانت سمسمة قد اختزنت داخل بشرتها عشرة كيلوغرامات زيادة عما عرفته يداي. لعل أبناء عمومتها سيسرعون إليها الآن. رأيت لها ردفين هائجين، وخطى متجرجرة، وحركة ثقيلة. لم تبد سمسمة على الإطلاق. ورأيتها مندمجة مع أمها اندماجاً يستوقف النظر بحميميته ومثاليته. رأيتها.

وقد عبرت مدخل المديرية دون أن تلتفت.

دقات الذاكرة

وأنا أنطلق عبر زقاق (المهدي) رأيتها. فجأة، وإذا الزقاق مكان آخـــر، وتلك الظهيرة القائظة زمان آخر.

كنت أهم بالانعطاف إلى شارع (المأمون)، ورأيتني مضطراً للـــــدوس على المكبح كي أفسح الطريق: امرأة تعبر ذلك التقاطع وتمضي. لم يبد أبـــداً أن فكرة توقفها هي، ريثما تعبر السيارة، قد خطرت على بالها. و لم يبد أبداً أنـــها اكترثت بصرير المكابح.

ليس فجأة، بل بعد ثوان: طول الوقت الذي استغرقه عبورهـــا أمـــام فوهة المحرك الشاخرة، بل وحتى وصولها إلى الرصيف الثاني. وعندما وصلت هي إلى الرصيف الثاني، كنت قد انعطفت بالسيارة إلى شارع (المـــأمون)، وعندها فقط انفتحت للذاكرة شاشة عمرها سبعة وعشرون عاماً.

لم ألتفت. نظرت في مرآة السيارة اليمنى. لمحتها ـــ تختفي وتتجلـــى، تختفي وتتجلى، بين قامات البشر العابرين.. وتبتعد، رباه! هتفت لنفســـي. إنـــها ما تزال في الحادية والعشرين.

أحلف يميناً أن وزنـــها لم يزد أونصة واحد، وشكلها لم يتمدد ملمـتراً واحداً.

أسندت ظاهر قبضتي بين فكيّ، وقدت سيارتي ـــ المتهدمة على مـــهل. أليست عجيبة حياة المدن؟ امرأة ورجل مارسا الحب طوال سبعة أشـــهر ثم

افترقا. بقيا في المدينة نفسها، لكنهما افترقا. وظلا مفترقين — في المدينة نفسها. ظلا مفترقين سبعة وعشرين عاماً.

كل يوم، أعبر في مدينة (ق) ستين شارعاً، وأشاهد ستة آلاف إنسان. عشرة آلاف. وبسبب هذه السيارة، وبسبب جنون دوري ينتابني في لحظات غافلة، أشاهد شوارع المدينة بأكملها كل أسبوع. فكيف لم ألتق بأمية خلال سبعة وعشرين عاماً؟

وصلت بالسيارة إلى رصيف المقهى. وبسرعة البرق هجمت إلى ذلك المكان الخالي، وركنت السيارة فيه. إنها صدفة سماوية بلا أدنى شك، ونعمى أيضاً. أن تجد مكاناً للسيارة في ذلك الشارع الذي يقصده نصف سكان المدينة ليس أقل من حظ سعيد بأي مقياس. أنا أعرف هذا الحصار الغادر. والشرطي يرمقني بزاويتي عينيه منظراً أن أركن السيارة في واحد من الأمكنة التي يشرف عليها.. فإما أدفع المبلغ المرقوم، وإما أدفع بالسيارة دورة بعد دورة في الزواريب والأزقة والمتاهات.

قبل أن ألج المقهى، تلفت إلى الخلف ونظرت عبر شارع المأمون. ثم وجدتني أعود صُعُداً حتى استواء الشارع. من هناك تلفتّ إلى حيث عبرت أمية قدّام سيارتي.

للحظات خاطفة رأيتها هناك. رأيت ظهرها. لكنها بالطبع لم تكن موجودة. وأدركت أن قوة تخيلي لها على هذا النحو تعني أنني اهتززت في العمق لرؤيتها، وأن هذه المصادفة العابرة ليست عابرة على الإطلاق.

أنا إنسان متمرس في التحكم بخلجاته. كانت فدوى تقول لي: "أنا أحتاج إلى ضبط النفس الهائل الذي لديك، فحبك لي يجعله وعاد لاستيعاب أنانيتي المخيفة." وقد تجرأتُ ذات يوم وسألتها: "أنت تحسين حقاً أنني أحبك؟" فالتفتت إليّ بدهشة عابثة ودمدمت: "طبعاً أنا أحس! ألا تحس أنت؟"

ليس لأني أفتقر إلى المشاعر. لا، أبداً. أنا فقط أريد التأكد منها. أريد ألا أتوهم. وأنا أبحث عن المشاعر في القارات الخمس. وهي الايقاع

الدائم لحياتي. هي ديدني. ليس في نفسي أي اعتبار للنواهي عندما تصطدم بالرغبات الإنسانية. القدسية ليست للمحرمات وإنما فقط للمشاعر. الاعتبار الوحيد في وجداني هو أن تكون هذه المشاعر حقيقية لا متوَهمة. وإذا ما تأكدت من أنها حقيقية.. مضيت قدماً ومضيت فلا رادع لي غير الموت.

تقدمت في الشارع، وقد أفرجت عن أملي في أن أرى أمية على ناصية منه، أو أمام دكان. بات واضحاً لي أني أتمنى رؤيتها، فقلت لنفسي: و لم لا؟ مادام هذا شعوري، فلم لا؟ مع الأسف، كان قد مضى وقت لا بأس به على لحظة لقائنا عند التقاطع. وكانت الحكمة البسيطة تفترض أن أمية لا يمكن أن تكون في أي من الدكاكين على الجانبين. وتصورت نفسي في وضع أحمق: أدخل دكاناً فتكون هي قد خرجت من آخر، وأصير مضحكة في أعين أصحاب الدكاكين.

قلت لنفسي إن خاطرة عودتي إلى مكان اللقاء البديد كانت نوعاً من المراهقة في الحقيقة، أو نوعاً من الوفاء الساذج لماض سعيد جميل. وبالطبع عدت أدراجي إلى المقهى، متمهلاً، خفيف الأحاسيس، ورحت أمسح عن ذهني انطباعات الدقائق الفائتة.

عند المدخل رأيت الشرطي يرمق سيارتي بغيظ كظيم، ووجه مصمم على الثأر في مرة قادمة. أحسست بنشوة حقيقية، لكني أخفيتها في داخلي. يجب ألا يراك الأوغاد سعيداً وإلا ازدادوا حقداً وانتقاماً. هذا اليوم نفدت من الخوة. لو كانت سيارتي فارهة وجديدة لقلنا إن التكرم على هذا الشرطي البائس ببعض النقود، سيعتبر على الأقل حسنة لوجه الله. لكن سيارتي التي بحجم البندقة هي أيضاً في العقد الثالث من عمرها المديد.

دخلت المقهى وصدري منفتح لإحساس بالظفر. في هذه الحالة، سأجندل الجميع حتماً على ساحة طاولة النرد.

كلهم كانوا موجودين. خيري ومجيد في المركز، والآخرون حولهما. لأمر ما توقفت قبل حوالي ثلاثة أمتار من وصولي إليهم. أنا معتاد على

رؤيتهم عبر مشاعر ساخرة أو استخفافية، لكنني لم أستطع أن أعرف كنه شعوري في تلك اللحظة.

إن لأمر مقلق أن يتفشى فيك شعور لا تعرف كنهه ـــ يتحكم بك وبمزاجك وبأي نشاط إنساني يمكن أن تقوم به. بل هو أمر استفزازي ـــ أن يحاصرك من الداخل شعور هو مفرزات كينونتك، وأنت لا تدرك ما هو. إنك تفتح الأبواب واسعة لكل ما يختلج في أعماقك كيما يظهر على فطرته، دونما خوف من زجر أو عقاب! ومع ذلك يتحرك فيك شعور ضاغط، لابساً طاقية إخفاء غريبة.

عرفت فقط أنني في تلك اللحظة بغير فرح لرؤيتهم، وبغير حماس. بل ولعل شيئاً من النفور والاستصغار حملني بعيداً عنهم، لأجلس في ركن قصي وأطلب نرجيلة. كانوا ضائعين تماماً. أشداقهم مفتوحة بامتلاء للضحك والهواء والنطق، وعقولهم مخوزقة على طاولة النرد. ضائعون في عالم أجوف لا يكترث لهم، لا يمنحهم أية قيمة. وهم مع ذلك مفعمون ثقة بالنفس. ليس بوسع أي واحد منهم الادعاء بأن أصابعه تنضم على أي شيء حقيقي أنجزه في حياته.

كان رأسي شبه متكئ على درفة النافذة الزجاجية المفتوحة، وعيناي شاردتين في الشارع. وجه من بين عشرات آلاف الوجوه تلك، التي أراها كل أسبوع، اقترب مني اقتراباً مقلقاً. كان باهر الوسامة. وفي نصف المتر الأخير أضحى واضحاً أن عينيه لن تفارقا وجهي قبل أن ينطق فمه بالكلام الذي يملؤه.

"أنا سلامة محمود، قسم التحقيقات في جريدة (اليقظة)."

هكذا خاطبني وهو يقف أمام وجهي بلا فرح. أوشكت أن أظن أنه يعتزم إجراء تحقيق عن حياة رواد المقهى الخائبين من أمثالي، أو عن دار النشر والتوزيع التي أعمل فيها. غير أن جهامة وجهه لم تمنح ذلك الظن مرتبة اليقين.

"أنت السيد علي عبد العال؟"

سألني بلا فرح. غير أنني تمللت وأنا أجيبه بالإيجاب.

تفرس في وجهي ملياً، ثم نبس كمن يفضي إليّ بسر: "أنت واحد خرا." ومضى.

كل شيء في كياني انتفض. مددت رأسي وراءه، ولكن بلا فائدة. كان يبتعد: منكباً طويلاً عريضاً بين المناكب والصدور. ما هذا! هل ارسل دوستويفسكي لي هذا الإنسان؟ إن مدينة (ق) ليست بطرسبرغ. وأنا لست فرداً يطارده مثّاه. لأول مرة في خمسين عاماً من حياتي تحدث لي هذه التفاهة المهينة.

لم أخرج وراءه. ربأت بنفسي عن هذا الانحطاط. العنف شيمة الجهلة والأغبياء. وأنا لست أياً منهم. سأتحكم بهذا الغضب الذي يجتاحني إلي أن يهدأ ، وأنأى بروحي عنه.

غير أني لم أعد أستطيع الجلوس في المقهى. ورغم أن أصحابه قد لحوني، وحيوني، وأشار أحدهم إليّ أن أجيء لنبدأ منازلة بالطاولة.. فقد تفكك شغفي بذلك المكان، وتداعى. وكان طبيعياً أن أغادر، لولا أن مغادرتي عنت أني سأدفع لأجل نرجيلة لن أدخنها. كنت واثقاً أن الظهور أمام النادل بمظهر المتفضل، الذي يدفع ثمن نرجيلة لن يدخنها، لن يعطيني من الراحة ما يكفي لإزاحة الضيق الذي تفشى في كياني.

عندما اتخذت قراري بالمغادرة، مضحياً بالنرجيلة التي لن أدخنها، نبق وجه ذلك الفتى الغريب.. سلامه محمود.. (كان من الشجاعة بحيث ذكر اسمه ومهنته).. وتجهم في وجهي. كان في أوائل ثلاثيناته، على مابدا لي. وجه خاثر وعينان صالبتان. تفرس فيّ بكل تقاطيعه وقامته الحيوانية. رمى علي بتعب جسيم ضاغط. رأيته واقفاً عند تقاطع زقاق (الحجاج) مع أسفل شارع (المأمون)، وهو ملتفت نصف التفات وينتظر وصولي.

بقيت جالساً.

تناولت خرطوم النرجيلة ودسسته في فمي. وراح الماء يقرقر داخل زجاجته، مثلما هو الضيف في خاطري والقلق. من أية بركة طلع لي هذا

الولد الشبح؟ وكيف له أن يعرفني؟ راقبت احتراق التبغ تحت الجمر. رحت أستنشق واستنشق، مبتهجاً للنار وهي تسري في تلافيف التبغ وتحيله إلى دخان.. ومبتهجاً، بل منتعشاً، بالدخان يغتسل بالماء قبل أن أدخله رئتي وأنفثه في ذلك الفضاء الرجيم..

إلى أن بدأت أسعل. وعندها صارت مغادرة المقهى حاجة نفسية ضاغطة. لقد أطبق الدخان والمقهى على صدري. نهضت وغادرتهما.

يا لهذا النهار الغريب! كان زوجتي الأخيرة تقول لي: "أنت رجل يناسبك تدخين النرجيلة. أنت بهذا التدخين تكرر قصة حياتك."

الآن وقد تركت النار والتبغ والدخان، إلى أين أمضي؟ كل إنسان في ذلك الشارع كان يمضي إلى مكان ما. إلا أنا. تلك لم تكن ساعة الغداء. ولا ساعة العمل. وهي لم تعد ساعة لعب النرد. وذلك الشعور المبهم، الذي أعياني كنهه، عاد يخاتلني وينيخ علي.

انعطفت إلى شارع (الحرية) المتعامد مع شارع (المأمون). إنه مكان أقل ازدحاماً ولكن أكثر إنسانية. أخف ضغطاً على الأعصاب. الأكثرية الساحقة من دكاكينه مكرسة لجسم الإنسان: ملابس، أحذية، شطائر، عصير، مواد تجميل.. وبعضها مكرس لحواسه وروحه وعقله: أشرطة كاسيت، مكتبة، آلات موسيقية، مقهى أوروبي.. وأن تعبر هناك بين جمهور يبحث عن الجمال، والذوق، والفن، شيء يمنحك العافية وانس المكان.

في هذه المدينة لا بد للإنسان المتوحد من أن يتلبس إيماءات شوارعها وبشرها. بوسعك أن تتمشى هنا وهناك، وأنت واثق من أنك لست المتوحد الوحيد. إن حياة الإنسان خاوية ومُنْجَزِرة. وليس هذا مفاجأة لواحد بلغ الخمسين منذ سنتين. لأجل هذا، يكون الاندساس بين مفردات هذا الحشد، وكل واحد فيه هو أنت بصورة من الصور، هو الصلة الإنسانية الوحيدة المتبقية لك. إذا كنت قد فشلت كفرد، فإن الصبوة لم تمت، والغد يظل ملكاً للحلم.

"فشلت" قد لا تكون هي الكلمة المناسبة. إذا التقيت صدفة بابنتك التي تتناول البوظة مع صديق لها، فأنت لست فاشلاً تماماً. أنت مستمر على نحو ما. وهذا الشعور الرغيد بالاستمرار قد يدفعك بكل بساطة إلى تحيتها بابتسامة عريضة، والانتظار ريثما تأتيك وتسلم عليك، وإلى دفع الحساب عنها وعن زميلها.. ولكن مهلاً: "بابا، طالب مجرد صديق، لا حبيب. وهو الذي دعاني إلى قدح بوظة، فلماذا تدفع أنت عنه؟"

"يا بنتي، يا يمن. أنا تصيبني نوبة كرم مرة كل سنة. ولمدة ربع دقيقة. خليني على عفويتي!"

" أنت حر! على كل حال، طالب سيدفع أجرة التاكسي إلى الكلية."

ثم ابتسمت بديمقراطية مطلقة، وعادت إلى زميلها، ملوحة بأصابعها.

تابعت مشيتي. بعد أن سمعت هذا المنطق المحكم من يمنى، لم أدفع. مشيت. ورأيت غريباً ألا أكون في المقهى ألاعب أصحابي لعبة المحبوسة. لماذا أتسكع هكذا؟ بسرعة البرق ارتد إليّ ذلك الشعور الكتيم ولبسني مرة أخرى. تذكرت الفتى الصحفي. وتذكرت ماهو أشد مضاضة: أمية. وعجبت : كم هو مرهق هذا الضيق!.

قلت لنفسي: لا بد من الست أم يزن في هذا الحر الدامغ. ويممت عائداً إلى السيارة. كانت زوجتي الأولى، أم يمنى، تقول: "أنت رجل، واحد زائداً واحداً يساوي اثنين. وأسوأ ما فيك أنت لا تغفر لنفسك أخطاءها إذا اكتشفت تلك الأخطاء. هذا هو أسوأ ما فيك."

لا أحب انتقادات زوجتي الأولى لي. أمقتها. ليس لأنها قد تكون صحيحة وبذلك تصير مغيظة واستفزازية. بل لأنها كانت دائماً تعلن على مسمعي كتقرير من لجنة تقصي حقائق تابعة للأمم المتحدة.

كان مريحاً أن أختي تسكن في حارة نظيفة هادئة، كثيرة الأزقة والأشجار، جميلة الأبنية. إن مجرد تأملك لمقدار الجمال الذي يستطيع البشر خلقه يطلقك من أسر ذكريات مقيتة كذكريات زوجتي الأولى. بصورة خاصة، هذه الساحة السباعية، التي تمتد منها الشوارع كالشعاعات، التي

تستظل بأشجار الزنزلخت، التي تكتسي البيوت حولها بجمـــال معمـــاري عاشق.

إلى هذه الساحة كنت أجيء كلما خرجت من عند أميـــة في غلـــس الليل. وفيها كنت أحياناً أبقى إلى أن يجهجه الضوء وراء المدينة الغامقـــة. جالساً تحت شجرة. متكئاً على سور مبنى. متمدداً على دائرة العشـــب في المركز، شاخصاً نحو النجوم البعيدة التي صارت ملكي.

شيء واحد فقط يظل مزعجاً في ذلك الجوار. إنه الدرج الملولب الذي يقود إلى بيت أم يزن. منذ ثلاثة وثلاثين عاماً، وهذا الـــدرج يـــتربص بي. تصور أن نصف درجاته على الأقل لها شكل المثلث وليس المســـتطيل. إن التعثر وكسر الظهر أو الأطراف، احتمالان قائمان على هذا الـــدرج منـــذ ثلاثة وثلاثين عاماً ــــ وخاصة في تلك الأيام السعيدة الطافرة التي كنـــت أهبط الدرج فيها لست خطوات، وأصعده بعشر، ماسحاً يدي على إفريـــزه المعدني المجبول بالغدر.

شكرت أختي الله لأني جئت، فأبو يزن طائر خارج البلد، وأولادهـــا مختفون داخل البلد، وليس هناك أنسي تتناول معه الغداء. "وأنا ايضاً مشتاقة لمزحاتك وخفة دمك،" أضافت هي بموضوعية مألوفة.

يجب ألا يؤاخذ أحد أختي على ثقتها العالية هذه بشخصيتي. إن كـــل فتاة بأخيها معجبة.

كذلك فإن توقعاتها لم تخب تماماً، فما إن لمحت عيناي زوارق الكبـــة بأنواعها، وحولها تلك السلطة الأرمنية الخارقة حتى انفردت أساريري، وفـــرّ مني الكمد الغريب الذي تلبسني.

"أنت دخلت البيت وأنت منقبض. أنا أختك الكبيرة، سيد عليّ، وأنـــا أعرفك."

هززت رأسي بنفي قطعي: "ضيق عابر، قلت. واضفت: "ولو كنـــت أعرف بوجود هذه الكبة الرحمانية عندك لما أصابني أي ضيق إطلاقاً."

في المطبخ قلت لها: "على أي حال، إذا سمحت لي بأن أشبع، سأكتسب مناعة أسبوعاً كاملاً ضد الضيق."

"ولماذا لا اسمح لك بأن تشبع؟" سألت وهي تقطع لي شريحة كبة نيئة.

"كيف!" هتفت بها، "كل هذا العمر، ولا تعرفين أنك بخيلة؟"

" أنا بخيلة، يا مسوّس، يا حفيد أشعب! أنا يكفيني أني أطعمتك سبعة أشهر كاملة، يوم سكنت في البناية التي بعدنا."

"لكن أمية كانت تطبخ لي.. لم أقل لك: رأيتها هذا اليوم."

شهقت أختي: "أمية! رأيت أمية! متى؟ أين؟"

لقمت قطعة كبة مدوزنة مع السلطة الأرمنية، وقلت محشوّ الفم: "في الشارع."

"كيف، في الشارع! بعمرك لم تلتق بها في الشارع!" صاحت أختي وقد توقفت عن الأكل.

"التقيت اليوم."

تناولت أختي الشوكة والسكين من جديد، وتمتمت: "سلمت عليها؟ كيف أحوالها؟ مازالت جميلة؟"

"أقدر أن أجيبك عن السؤال الأخير: نعم مازالت جميلة. والله العليم أنها أجمل. لكن، لا أعرف أحوالها لأني لم أسلم عليها."

" لم تسلم عليها؟ أنت غراب حقيقي."

"كيف أسلم عليها وأنا في السيارة، وهي ماشية!"

"يا أخي أوقف السيارة، وانزل، وسلم عليها!"

"أوقفها في عرض الشارع! أنت مجنونة."

لم يبد على أختي الاقتناع. لكن منطقي كان قوياً فاسكتها. مضت دقائق، فيما هي تحيطني برعاية خاصة صامتة، وتلح علي بحركات يديها أن آكل أيضاً وأيضاً.

ذلك هو ما يسعدني في بيت أختي: إنها تقدم لي الرعاية التي لم أستطع أن أظفر بها من أية امرأة.. إلا أمية، طبعاً.

كانت عايدة تقول لي: "أنت رجل يستحيل إرضاؤه. أنا معروفة في الحارة كلها، في البلد كلها، بولائمي. وأنت لا يعجبك شيء منها!"

وكنت أقول لها وأنا أعتقل جذعها بين ذراعي: "ولكني شديد الإعجاب بالوليمة التي صنعها الخالق في هذه القامة الرائعة. أغرب وليمة في التاريخ. كلما غرفت منها ازددت جوعاً إليها."

قالت أم يزن: "تعال نشرب القهوة في الصالون. الدنيا حر. أنا سمعت من شهرين أنها طلقت آخر أزواجها."

كانت تقصد أمية. نظرت إلى وجهها مستفسراً، ولكن صامتاً. "ألا تعرف؟" سألتني هي بغير دهشة. كأن المفروض هو ألا أعرف. تابعت نظرتي. قالت: "كانت متزوجة من واحد صحفي، يصغرها بخمس عشرة سنة. شاب بقدّ الجبل، ويعبدها عبادة. لا أعرف لماذا طلقته."

قلت بحسم هادئ: "كيف لا تعرفين! المسألة بيّنة. لم تعد المرأة تسعد بالزواج من ابنها."

هذه المرة ردت أختي على منطقي المحكم بمنطق محكم معاكس: "طالما هو يحبها، ويقدم لها كل فرح الدنيا، وهو أصغر منها بخمس عشرة سنة!"

قلت بحسم هادئ: "أمية لا تستهويها هذه المرابح. أن أعرف."

لكن أم يزن لم تستسلم: "كلما طلع خارج البلد في مهمة صحفية، كان يأخذها معه. حكوا أنهم في تونس عاشوا احتفالات لا تصدق. ولما رجعوا، تطلقوا ثاني يوم." ثم هزت رأسها بحزن.

قلت: "تونس هي بلد الاحتفالات."

أضافت أختي: "لا أدري ماذا أصاب هذه المسكينة. بعد خمس سنين مع زوجها الأول."

سألتها من هو هذا الصحفي، فهزت رأسها بالجهل. ثم قالت: "اظن اسمه سلامة."

نبق وجه ذلك الفتى للتو وتجهم في وجهي. هكذا إذن! رأيته واقفاً عند تقاطعِ زقاق (الحجاج) مع أسفل شارع (المأمون) ملتفتاً نصف التفـــات، منتظراً وصولي.

أطبقت فمي دون مزيد من الكلام. لكني فتحت نافذة ذاكرتي لوجــه أمية. لم تكن أمية كثيرة الكلام، أو حتى متكلمة، مثلما هن بقيـــة النســاء اللواتي عرفت. كانت تتكلم بحركاتها لا بصوتها.

بانسياب خطاها وقامتها. وكانت عيناها ووجهها أفصح بكثير مـــن لسانـــها. ألم يقل زوجها ذات يوم، وهو يتناول ساعته الزمردية من جيــب صدريته: "أمية! أنا تزوجتها وهي طفلة. أخذتها من التاسع الإعدادي."

إنما، لماذا شتمني هذا الحيوان سلامة؟

تلاشى مفعول الكبّة بعد أن شربنا القهوة. تستطيع معدة مليئة غالبـاً أن تنسيك أن حياتك جوفاء. لكن ذلك الكمد اللعين عاد إليّ بقوة منذ عرفت أن سلامة هذا هو طليق أمية. إن شتمه لي ليس مجانياً، كم حسبت.

استغربت أختي: "تخرج! الآن في عز هذه الهاجرة!"

قلت: "الحقيقة يا أم يزن، أنا متضايق. يجب أن أعـــترف. ومتضـــايق أكثر، لأني لا أعرف سبب ضيقي."

"غلبوك بالطاولة!" قالت هي، مثل من ضاعت الأسباب في ذهنـــها.

"أبداً، لم ألعب. لحسن الحظ. لعب الطاولة ضياع تام. حياة جوفـــاء، وأفواه مفتوحة للكلام الأجوف والضحك الأجوف، بينما العقول مخوزقـــة على طاولة الزهر."

هتفت أختي واصابعها ترد الشعر عن أذني: "مالك ياأخي؟ لماذا هـــذا الحزن في وجهك؟"

تأملت وجهها وأنا شارد الذهن في سؤاليها. ثم ابتســـمت وقلـــت: "تسأليني؟ كبّتك هذه مغشوشة. فيها مواد تسبب الكمد."

غير أني رفضت الاسترخاء للقيلولة عندها. كان لا بد من أن أخـــرج. لكن أختي لحقت بي على غير العادة، ووصلت معي إلى الباب. رأيـــت في

وجهها كلاماً، فنظرت إليها مبتسماً مستفسراً. كانت راحتاها مستندتين على جداري الممر. وقفت منتظراً.

قالت: "علي. أنت كان بينك وبين أمية شيء؟"

وصمتت منتظرة ردي، فبدا لي أن عينيها تستحلفانني أن أقول الصدق.

ابتسمت بكآبة وهززت رأسي. قلت: "سبع وعشرون سنة! لو كان بيننا شيء أما كنت لأحكي لك في مناسبة من المناسبات؟"

هزت أم يزن رأسها إزاء منطقي المحكم، وهزت أيضاً حاجبيها.

خرجت. أغلقت الباب ورائي، وتلقاني ذلك الدرج اللعين. تسودنت من تلولب الدرجات وشكلها المثلثي الغادر. نزلت عليها ببطء، ليس فقط لأني مسترخي البدن بفعل التخمة، بل ولأني رفضت إعطاءها فرصة لفركشة قدمي.

وهاهو ذا الباب. ذلك الباب. الباب الذي كان أجمل الأبواب. أحب الأبواب. الذي انفتح على الأجمل والأسعد في حياة شقية مضطربة. انفتح على أمية.

هما في الحقيقة بابان. تماماً مثل بيت أختي. لكن الباب الحبيب هو ذلك الذي إلى اليمين. الذي أعبره في هذه الأيام دون ان اراه. الذي نقرت عليه برأس سبابتي، ذات يوم، نقرتين متتاليتين، وثالثة متأخرة قليلاً، لكي تعرف أمية أنني قادم. قبل سبعة وعشرين عاماً. في اليوم الأخير من العام الراحل اليوم الأول من العام الجديد. وكان ينفتح كانحسار موجة صغيرة عن رمل الشاطئ. الذي أمرّره أمامه هذه الأيام بحركة هلالية، دون أن أنتبه إليه. وكان لونه قبل سبعة وعشرين عاماً بلون زهر الصبار وصار الآن بلون الضفدع. الذي أسلمني إلى ممر قصير كان المطهر الذي يعبره العاشق إلى جنة الحب. وكان طيف أمية يفتحه، فكأنها رضواني الذي جاء إليّ بالأجنحة.

وقفت أمامه. تأملته. ولكن بغير جدوى طبعاً. إنه الآن رمس. والله يعلم من هم الذين يقبعون وراءه.

أمية! أمية! هكذا سمعت نفسي أهتف وأنا أفتح نافذة ذاكرتي لوجه أمية اللؤلؤي ولقوامها المشعشع.

في تلك الأيام وصفتها لتيسير، وقلت: "جسم خال من أية زيادة." ليست هناك نشوة تعادل نشوتك وأنت تتلمس تلك الأضلاع النحيلة التي امتدت من محور الكون وانعطفت كالهلالات، واتسقت في ذلك البنيان الواسع وليس الضخم، وصنعت أفقاً وشفقاً وغسقاً ونسقاً وألقاً اسمه صدر أمية وظهرها.

إن بذكرى بذل البيانو الذي كانت أصابع موزتيزيو بوليني تعزف عليه في باريس قبل ربع قرن، بتلك الأضلاع البيضاء التي ارتعاشها تعني الموسيقى، وموسيقاها تعني الحبور والنشوة وفريدريك شوبان.

ذلك هو جسم أمية. إنه نهر النيل هضاب إفريقيا وفي صحراء مصر. التكوين المنحوت على قدّ الحياة. إنه الوسامة بلا دسامة. الشكل الذي ليس كتلة. كنت أرفعه في الهواء ثم ألفه على كتفي وزندي وساعدي. وكنت أسحب منبع فمه إلى مصب فمي وأرشف منه رحيق أزهار الجبال. وكنت ألفه عليّ وألف به، ويلتف علي ويتثنى بي. وذراعه اليسرى تشد على أضلاع صدري، وأصابعه تغلغل في شعري، وحلمته منضوية خلف أذني، وراحتي اليسرى توكئ خده، وأصابعي اليسرى تغلغل في غدائره. ألف به ويلف بي إلى أن يهبط إلى فراش ممدود على أرض التفاح.

ياهاذا القيظ الفظيع. قيظ في الداخل والخارج. مستنقعات من القيظ. حتى اشجار الزنزلخت عجزت عن أن تخفف من فظاعته. ومع ذلك. كان لا بد من إغلاق النافذة. رياح الذكريات تلك كانت قائظة هي الأخرى. أمية لم تصر يوماً حبيبة. ذلك لم يكن بمقدورها. و لم تطلبه أبداً. وكل هذه الحسرة والضرام سببها فشلي في العثور على حبيبة، أو ربما اشواقي الجنسية الراهنة التي أيقظتها مصادفة شبه مستحيلة.

أجل. المصادفة هي سبب إثارة هذه الذكريات الشبقة. بل إن أمية لم تكن المرأة الأكثر إثارة بالنسبة لي. كانت زوجتي الثانية تفوقها كثيراً في هذا

المضمار. صحيح أن علاقتي بأمية حفلت بالفانتازيا والحلم، وربما بكثير من الفيض الشبيه بالموسيقى. لكن الكبّة النيّئة، مع السلطة الأرمينية، كانت بلا شك عفراء. عامين كاملين وأنا اعفّر جسدها الحِمّيري بتراب جسدي، وأطفئه بعرقي وانصباباتي. لم أعتقها يوماً واحداً. كان شفتاها مرجاً أحمر، وتكويناها طبولاً تقرع بالشبق. لم أعتقها يوماً واحداً. صرت بطل العالم في النحافة. إلى أن جاء ذلك اليوم الذي طفرت فيه عن سريري، دفعتني كلبؤة تعاشر ذئباً، وانتفضت إلى وسط الغرفة، وصرخت: "طلقني!"

لم يصدق القاضي إدعاءاها. "تقوليه الأستاذ كان يقاربك كل يوم؛ وتقولين أنك امرأة محرومة؟ "مثلي أنا تماماً، لم يفهم القاضي شيئاً. بل إنه لمح إلى وجوب كونها أنثى ممتنة وسعيدة: "كل يوم!" قال، مجازفاً بالتخفيف من وقاره أمام هذا القطع النادر، وربما المستحيل، من عملة الحب.

يومها تخليت عن كل ثقافة وحضارة. بعد العقلانية المثلجة لأم يمنى، لم يكن بوسعي التخلي عن هذا الجنون الرائع الحي. تمطى في داخلي وحش مسكون بالتملك وابرز مخالبه وأنيابه. وكان يمكن أن نظل دهراً نتجرجر في المحاكم، وفي أوحال الفضيحة، لولا أن رجلاً غريباً ظهر في المحكمة برفقة محاميها، وتقدم للشهادة. وبلا تلكؤ أعلن أنه عشيق السيدة عفراء الذي ينوي عقد قرانه عليها بعد طلاقها. ثم راح يصف جسمها وعلاماته وندوبه وتفاصيله، وحركاتها واستجاباتها.. حتى صرخت بأعلى صوتي: "اخرس! اخرس!" والتفت إلى عفراء بـ "أنت طالق!" وغادرت قاعة المحكمة.

طبعاً كانت زوجتي الثانية هزيمتي الكبرى. معها فقط وصلت إلى ذلك الحس الرائع بالانطفاء بعد الارتواء، بل الحس بالموت، أو ربما مرحلة موت بين حياة وحياة. كنت أتركها وأنا أشبه شيء بأرض لحقية أوحلتها مياه الري. وفي الصباح التالي أراني انتفضت كالعنقاء، وبدأت أحتقن بالشهوة حتى مجيء الليل.

ولم يكن وضعي هكذا مع أمية. في حياتي لم أحترق مع أمية. لم اشعر بالضرام في جوانحي شوقاً إليها. ولا أثناء حبي لها. لم أصل إلى حالة الموت الرائعة تلك، حين تتحرر بصورة مطلقة من جميع حاجاتك، ودوافعك، وتطيب لك مغادرة هذه الأرض. أقصى ما استطاعت أمية إثارته هو حس شفيف مرهف بالجمال. كانت جميلة إلى درجة الطهر والنقاء. لكنها لم تثر ذلك الحس السيلي بالشبق، بالروائح العطنة الرائعة، بالتشفي، والاستلاب، والمقارعة. لذلك لم أصل في أي يوم من أيام علاقتي معها إلى اقتناع نهائي بأن ما بيننا حب. هي لم تكن تستفزني في شيء، ولا تثير فيّ خوفاً من فقدانها. حتى عندما عقدت قراني على أم يمنى، كنت متأكداً من أنني، إذا ما فشل زواجي، سيمكنني أن أعود إلى أمية بغير عقاب.

يبدو أن للذاكرة نوافذ خفية يمكن أن تنفتح من تلقاء نفسها، ودون أن تعبأ برغبة صاحبها. وهكذا كله لأجل خلخلة حياة رجل يعرف أن حياته جوفاء. أنا لست من بناة الأوهام، الذين يؤمنون إيماناً قطعياً بأن لحياتهم معنى رفيعاً وغاية جليلة. الحياة هي حلقات من المتع الصغيرة. معناها الكبير هو سعيك إلى أن تكتشف لها معنى أو، إذا كنت شخصية خاصة، أن تصنع هذا المعنى. أنا لم أقدر أن أصنع لها معنى. وقد اكتشفت أن معانيها المتوارثة مجموعة من المستحيلات: الحب، الحرية، الاختيار، العدل، الوعي، الفرح.. إلخ..

غير أنني لم أعد. طلقت أم يمنى ولم أعد إلى أمية. كان زوجها قد طلقها ورمى بها إلى الشارع الذي جلبها منه. ويوم صرت حراً من جديد كانت هي قد اختفت في تلافيف هذه المدينة، واختفت معها زوابع فضيحتها مع عشيقها السويسري الذي حملت منه ولم تتمكن من تلافي حملها.

يا لذلك الزمان البعيد. لم اعرف يومها ماذا حدث بالضبط. كان قد مضى على زواجي الأول ست سنوات عجاف، وعلى طلاقها أربع.

عرفت فقط أنـــها لم يعد بوسعها أن تبقى تلك "الطفلة" التي أخرجت مـــن المدرسة لتتسلم رعاية زوج وطفلتيه.

يا لهذه الذاكرة. قربة مثقوبة. وأنا الذي أفخر بأني في حالة سلام دائـــم مع لاوعيٍ، ولست خائفاً منه.

حسناً يجب أن أعترف بأن رؤيتي لأمية لم تعبر كأي حـــادث عـــابر آخر. قدت سيارتي في هذا الحر الأصم، مخترقاً شارع (القاهرة) وشـــارع (النصر) وزقاقين بينهما، حتى تقاطع زقاق (المهدي) مع شارع (المـــأمون). كان الزقاق خالياً فاقتربت بالسيارة إلى اليمين، وتقدمت نحو تلك الرقعـــة النحيلة للضيقة. إنـــها أطلال خاوية، ولكن لا بأس بنظرة قبل العـــودة إلى مكتبي.

وقفت قبل مترين من النقطة التي لمحت أمية فيها اللمحة الأولى. من هنـاك كانت تعبر الطريق. فتحت باب السيارة ونظرت. الآن صار ممكناً أن أتخيـل الخطى الطويلة الهادئة، والفستان المترقرق على القوم المديد، والعبور الطيفـي الذي كأنه نسائم النهر على الصدر.

أمية! أمية! كم كان جميلاً لو عدت إليك. أن الوحيدة التي لم تطـــالبني بشيء. كم مرة عرّفت حلمتيك لطلقة من مسدس زوجـــك، أو صرخـــة فاضحة من حنجرة ابنته، كرمي لي. ومع ذلك لم تطلبي مني عهداً. كـــل النساء اللواتي عرفت أردن امتلاكي، إلا أنت. وكل النساء أردت امتلاكهن إلا أنت. وحتى بعد أن تركتك، وتزوجت أم يمنى، وعدت أراك من جديـد في بيت أختي، لم تنسحب الابتسامة من وجهك قـــط، ولا الإلفـــة، ولا المرح، ولا المزاح. فكأن لقاء طوال سبعة أشهر، وفراقنا الذي تلاه، هما مثـل شروق الشمس ومغيبـــها.

مع غيرك كان الحب ينمو بالصراع والملاطمة. ومعك أنت، باليســـر والتدفق. ولكن، أسفاً. كنت أنت زوجة، وأماً لطفلين، وفي مثل عمـــري تقريباً، وغير متعلمة.. كنت في مضمار آخر، في زاويـــة مختلفـــة.. كـــان مستحيلاً أن تخطري على البال كشريكة حياة.

حاولت أن أرسم خط السير الذي خلّفته أمية في ذلك الشارع، فلم أستطع. هل أرادت أن تشتري شيئاً، وتوقفت لأجله في أحد الدكاكين؟ هل حملتها صدفة إلى شارع (المأمون)، وبالتالي عبرته بمجرد عبور؟ هل جاءت تزور أحداً في هذه البيوت؟ أين هي طول هذه السنين؟ أي مكان هو مكانها؟

نجحت فقط في استعادة صورة فستانها وهو يهف ويهف. ربّاه! إنها لم تتغير قط. هي تحب لبس الفساتين. معظم المرات التي رأيتها فيها، كانت ترتدي فستاناً. في الصيف والشتاء. فستان ليس تحته ملابس رديفة أخرى، كما علمت فيما بعد. وعندما سألتها في ذلك اليوم الأخير من السنة إن لم تكن تحس بالبرد، هزت رأسها بالنفي. غير أنها سرعان ما عقدت ذراعيها تحت صدرها. ثم اكتست نظرتها الساكنة بالابتسام.

كان الجميع قد غادر بيت أختي إلى النادي الليلي الذي اختاروه لسهرة راس السنة. ولأن زوجها كان غائباً في إيطاليا، عرضت هي أن تسهر مع الرضيع يزن ريثما يعودون.

ما الذي كان قد نهض وربط بيننا حتى ذلك الليل؟ تقريباً لا شيء. إن زوجها كان دائم الغياب، اعتادت هي أن تصعد إلى بيت أختي وتأنس فيه. ولأني كنت في تلك الأيام حائراً بائراً، أرفض قيم المجتمع كلها، وأتسلى بالحصول على ماجستير من مدينة (ت)، فقد رفضت الانضمام إلى شلة أختي البرجوازية الضائعة. بالنسبة لي، كانت سهرتهم نوعاً من المخاتلة هدفها الوحيد مراوغة حسهم بأن الحياة جوفاء في أساسها وجوهرها.

وهكذا التقينا، أمية وأنا، في ذلك الليل. كنا نلتقي من قبل كثيراً. لكن لا حدود كانت دائماً واضحة، دائماً غير قابلة للعبور. ليس فقط حدود الجيرة، والوضع الاجتماعي، والكياسة الطليّة التي حلت محل أية مودة حقيقية. لقد أمسكني يقين ثابت لا يتزعزع بأن أمية أجمل من أن يطمح إليها عاشق (لم تكن في نظر أختي سوى أمرأة نحيلة عجفاء)، وأجمل من أن

أستحقها أنا شخصياً امرأة مثلها، بل وأجمل من أن تنعم بالسعادة: كانت وردة لا بد وأن تقطف باكراً بسبب قوة جمالها وأريجها؛ وقد قطفها ذلك العلج زوجها بملقط من الدولارات. وكانت وردة ما تزال تضج بالنضارة والفوح، رغم قطفها، فشغف بها معجبون أقوياء مقتدرون، لا قبل لي بمنافستهم. في مقدمة هؤلاء كان أبو يزن، بالطبع، زوج أختي، وصديق زوجها.

دخلت صالون بيت أختي بعيد الحادية عشرة ليلاً. رأيتها جالسة على الكنبة، معقودة الذراعين، ومسمرة العينين على جهاز التلفزيون. فوجئنا، أحدنا بالآخر. وفوجئت أنا ايضاً بتفرجها على برنامج تلفزيوني احتفالي، ولكن مغيّب الصوت. لقد أرادت أن ترى الصورة فقط، وقد استمدت منها ضوءاً يكفي للصالون، دون أن تسمع المذيع والمطرب والموسيقيين والجمهور. في تلك اللحظة، وبعد أن حييتها باقتضاب تقتضيه ضرورات الحشمة، أعجبت بها إعجاباً مختلفاً ــ كإنسانة وليس كمجرد أنثى. لقد أرادت المشاهدة دفعاً للوحشة، وليس المشاركة، فهذا العالم الأجوف لا يستحق غير الفرجة.

جلست على كنبة ملاصقة، لأن الأدب يقتضي ألا أسرف في تتبع الحشمة، خاصة وأننا كنا نتمازح بين حين وحين. لكنني جلست بنوع من الانسحاب. صحيح أن شاباً مثلي لم يكن ليحلم بالوصول إلى امرأة مثلها ــ عبر دوائر من المعجبين، لكن هذا لا يجب أن يعني أنني غير جدير بأي تقدير على الإطلاق.

أقبلت الخادم من المطبخ. أشرت لها بسؤال: أين أختي وزوجها، فأجابت أمية: "راحوا كلهم للكاف دوروا."

ابتسمت الخادم فرحاً بخلاصها من ورطة النطق بالكاف دوروا. وصنعت بيدها إشارة فنجان قهوة. فأحنيت رأسي بالموافقة. عادت إلى المطبخ.

في تلك اللحظة علا صوت يزن. كانت أمية أماً بالطبع. لذلك نهضت إلى الوليد فوراً. كذلك نهضت أنا، ثم ما لبثت أن عدت إلى كنبتي بتلكؤ، ورحت أشاهد التلفزيون.

طوال دقيقتين أو ثلاث، غابت أمية في غرفة النوم، حيث سرير يزن المصنوع من البامبو. لكن صوت الوليد كان قد توقف.

أية أسرار تختزنها المشاعر الغائبة في أغوار نفوسنا؟ وما الذي حملني في تلك الثانية من زمن لم يحدث من قبل ولن يتكرر من بعد.. ما الذي حملني إلى غرفة النوم؟ ما الذي جعلني أفتح الباب بهدوء وتردد وبطء، فيدخل الضوء الخافت قبلي ويكشف عن الدهشة على وجه أمية، ثم عن عدم الاكتراث البارد؟ ما الذي أدخلني؟ أي شعور واية جرأة؟ ما الذي أفلت الباب من يدي وتركه يعود إلى إطاره طارداً ذلك الضوء بالتدريج إلى أن انقفل المكان بالعتم؟ ما الذي جعل أمية تهمس: "نام" فتعطيني القوة لأن أنظر إلى وجهها وأرى الضوء الكامن في عينيها؟ ما الذي قلناه في العتم والصمت؟ أية معرفة بالخفايا تفتحت فينا ولكن عبر الوعي الجبان، فجعلت ذراعي تمتدان إليها، وقامتها تقترب مني، ونحن كأننا في عالم النائمين؟

دفعتني عنه بعنف عندما انفتح الباب بطيئاً. وتقدمت صينية تحمل فنجاني قهوة. الخادم خدام طبعاً، لكن هذا لا يمنعها من أن تكون خبيثة، وفضولية. لقد دخلت بالقهوة مفترضة أنه ليس ثمة ما يمنع الدخول بها. فالحدود دائماً قائمة بين القلب والقلب، ودائماً غير قابلة للعبور. وإذا كانت قابلة، فالخادم سترى. هي فقط أرادت التأكد من سلامة دفاعات المجتمع. ولكن .. ألأجل هذا الدخول ياترى، دفعتني أمية عن شفتيها؟

تلك كانت المرة الوحيدة التي دفعتني فيها إلى الخلف. معها كنت دائماً إلى الأمام. وهي أيضاً كانت معي. لم تتخلف — وخاصة لأجل استبقاء تلك الحدود أو خوفاً منها. لم تخف أبداً، حتى وسط زحمة الرعب من أن ننكشف. ولم تضع للحب بيننا دقيقة واحدة.

عدنا إلى الصالون، وبيد كل منا فنجان قهوته. جلسنا ثلاث أو أربع دقائق. هذه أيضاً لم تكن ضائعة. شيء من الوقت لزم لنا نحن الاثنين، لنلملم ذاتينا اللتين بعثرتهما شعاعات المفاجأة وأجنحة الدهشة.. قبل أن نطير إلى أقاليم جديدة.

نظرت إلى ساعتي، وكان الحادية عشرة وستاً وثلاثين دقيقة. ثم نظرت إلى أمية.

لم يكن وجهها ناطقاً، بل منتظراً. ودون ان ابعد الحدود عن وجهي، قلت لها: "خلينا نلتقي.،

عقدت ذراعيها تحت صدرها. نظرت إلى التلفزيون. سألت: "أين؟"

"عندك. في بيتك."

نظرت إلى مرتاعة. هناك مراهقتان، ابنتا زوجها، وطفلان صغيران، ولداها. لم تتكلم. لكن المستحيل طوّق حدقتيها.

قلت: "يكونون نائمين."

كانت تنظر إلى التلفزيون. تمتمت: "الليلة رأس السنة. تسهران حتى الصبح."

نظرت إليها برهة؛ ثم التفتت هي إليّ. قلت لنفسي: أي تراجع أمام الضرورة والظروف سيعني انطفاء هذا الألق. نبست جامد الوجه، وأعيننا متواشجة: "بعد عشرين دقيقة، سأدق بابك دقتين، ثم ثالثة."

بدلاً من أن تسخر، أو تغضب، أو تصمت على الأقل، وتشيح بوجهها نحو التلفزيون.. ابتسمت. فكت ذراعيها، وعقدت اصابعها حول ركبتيها. ابتسمت: "لماذا بعد عشرين دقيقة؟"

قلت: "لتكوني بين ذراعي في لحظة رأس السنة."

نهضت فوراً. سمعتها تهتف: " إلا إذا كانوا سهرانين." توقفت بنظرة رجاء. قالت: "طيب. سأحشرهم في غرفة." وأسرعت إلى الممر، فالباب، فذلك الدرج.

في الساحة الجميلة العابقة تنفست الصعداء. هذه حقاً سنة جديدة مختلفة. كانت السماء صافية تماماً، والبرد خفيف الوطأة. منذ ذلك الحين صارت تلك الساحة مكاناً آخر. إن بوسعك أن تقيم وشجاً مع الأمكنة، طبعاً. لكن حياة المدن نادراً ما تمنحك هذه البركة. المكان في المدينة دائماً غرب، دائماً منقطع، وأحياناً معاد، وفظ. تلك الساحة كانت مكاناً كغيره من الأمكنة، محايداً في معظم الحالات، نابذاً أحياناً، بلا ملامح، إلا تلك التي تميزه عن مكان غريب آخر.

وقد صارت لي. مكاني الخاص الذي يربطني به حبل سرة جميل قوامه الفرح والظفر. أمضيت فيها تلك الدقائق العشرين من العام المتواري، ومثلها من العام الجديد، بعد أن خرجت من عند أمية. كان الليل قد شاخ عندما خرجت سواده في اشد حلكته، ونعمته في أشد بياضها. ورأيتني أمتلك هذين المطلقين العنيدين، الزمان والمكان، في أقصى حلاتهما صفاء ونقاء ونشوة وتواشجاً.

كنت أبثهما صور آخر عناق مع أمية بألوانه اللانهائية التي خضبتها المشاعر. أقول لهما عن خلجاتي ودقات قلبي وروحي مالا يمكنني قوله حتى لتيسير.. كيف نتعرى بلمح البصر، كيف نعيش في قمة الشبق وفي قمة الرعب، كيف أرشف أمية واستمطرها..

الحقيقة أنني امتلكت ساحات كثيرة، وشوارع وأزقة، من هذه المدينة الاسفنجية. وملكت أشجاراً في شوارع وفي جنائن بيوت، وأزهاراً، وأسواراً، وجدران مدارس ومساجد وكنائس، وحديقتين عامتين. هذه كلها كانت تتلقاني في حالات الشوق والتهيوؤ، ثم ترسلني إلى أمية. وتتلقاني في حالات الفرح والامتلاء وامتلاك الوجود. وتتركني أنتشر فيها وعليها كأنني بعمق سعادتي وقوتها صرت السيد الوحيد المطلق لك تلك الربوع.

لم تكن دائماً سعادة في الواقع. في عديد من الأحيان، كنت ارتد إليها خائباً محبطاً. فأمية لم تكن قادرة دائماً على استقبالي. أحياناً عديدة، دققت

مرتين، ثم ثالثة، وانتظرت، ولكن دون جدوى، فعدت أدراجي وقد هبط مني كل فرح وأمل وبصيرة. لم أكرر الدقات بالطبع هكذا أفهمتني هي. بين اتفاقنا ومجيئي، أي طارئ كان ممكن الحدوث، بحيث يحبط لقاءنا. وأمية عنت دائماً ما قالته. هي لم تكن ذلك النوع من النساء اللواتي يتقن التحليل والمماطلة كيما يحافظن على الحبيب ــ هذه المرأة، التي بيعت داخل الحدود في صفقة بين الفقر والغنى.. بل هذه الفتاة، لأنها كانت على الدوام أقرب إلى البراءة والفطرة.

كانت تلك الأمكنة تستقبلني كم لو أنها أمست بديلاً لأمية. لم أشعر فيها بالوحشة، ولا بالنفور. وما عدا الحياة الخاصة في لقاء الإنسان بالإنسان، فكل رقعة فيها ذكرتني بسعادة الليالي الماضية، بالحياة المعاشة فعلاً في الحياة الماضية، وقدمت لي أنساً ورفقة، وألبستني ليلها وصمتها فأسبغت علي الهدوء والسكينة.. وحتى الصفاء أيضاً.. بل النقاء.

النقاء، نعم. النقاء. تلك هي الكلمة. العهد الذي قام بني وبين أمية، قام على النقاء. على الثقة، واليسر، وعدم المحاسبة. الخيبة هي حقاً الخيبة، لكنها مع أمية لم تكن إحباطاً. لم اشعر بالمرارة، ولا بالخسارة، ولا بالعكر. لم أشعر أن هذه الليلة ليلة فاتتني ولن تعوض. ومع أني كنت أعد المرات التي انتشيت فيها مع هذه الفتاة، فلم يخطر لي يوماً أن العدّ لن يستمر إلى مالا نهاية.

و لم يخطر لي أن الأمكنة لن تبقى تلك الأمكنة. بعد زواجي الأول، انقطعت عن الساحة والشوارع والأشجار. وعندما عدت إليها بعد حين، وجدت على وجوهها شيئاً من الجفاء، من اللامبالاة. أنا شخصياً، ابتسمت لها بهدوء كأنها ذكرى وفاتت. كأنها لم تعد من الحاضر. لم أعتب لأنها أمسكت عني الحسن القديم بكوني ابنها الأليف الوحيد. كنت اعيش سعادة جديدة من نوع أرقى. وبالتدريج تساقطت عنها تلك الأرواق الخضراء التي أنبتها لها فرحي ونشوتي. بالتدريج صرت أعبر بها فلا تثير سوى خلجة أو خلجتين في الذاكرة. أو لا شيء على الإطلاق.

ربما كان زواجي الأول هو السبب في تفكك العرى بيني وبين تلك الأمكنة. ولكن ماذا بعد أن تكشفت تلك التجربة عن خيبة جوفاء وإحباط كامل؟ ايضاً لم يحدث شيء. بدلاً من أن تخفق الذاكرة بذلك الصفاء الماضي، تمسكت بوهم المستقبل الجديد، وذدفعت ثمن تمسكها هذه الأعوام السبعة والعشرين: وهم الحب.

نحن نتوهم أننا أحببنا. وربما دفعنا التوهم إلى الزواج. وبعد زمن ما، نكتشف عشر أو خمس عشرة من الخلال غير المرغوبة في الحبيب. ونجد أنفسنا غير قادرين على العيش معها. لكننا بدلاً من أن نعترف باستحالة استمرار العشرة، وبضرورة الانفصال حفظاً لإنسانية كل واحد منا، نمشي في الطريق المعطل الغلط، طريق القسر والعناد والصراع، حرصاً على الحدود أو خوفاً منها. نحاول إعادة تكوين الحبيب بحيث نشفيه من تلك الخلال الرديئة غير المرغوبة، وجعله الكائن الذي يمكننا العيش معه. يا لقبح أرواحنا. يا لقبح عقولنا. لقد عشنا آلافاً من سنوات الحضارة دون أن نتعرف على الديمقراطية.

أخيراً.. هاأنذا. أجلس على هذا المقعد الصغير، من سيارتي الصغيرة، في هذا الزقاق الصغير، من هذه المدينة الكبيرة. أجلس، وأقلّب أوهامي وذاكرتي. وهم الحب هو الأول بين الأوهام، طبعاً. عجيب أنه لم يتشكل يوماً حولي أمية. ربما لأنه الحب كان حقيقة، وبالتالي لم أستطع رؤيته. لأن هنا أناساً مفطورة على رؤية الوهم فقط. وربما، ليس عجيباً. قبل سبعة وعشرين عاماً، كان مستحيلاً الشعور بأننا حبيبان هي المتزوجة، الأم، الأمية؛ وأنا المنطلق في رحلة تجاوز متجددة، وقودها قطيعتي المطلقة مع كل نمط اجتماعي سائد. ولو أن أمية بدت لي ولو من بعيد، ولو للحظة واحدة، خارج قوس معادلات الحدود، لو بدت حبيبة أو احتمال حبيبة، لم ترددت لحظة واحدة في اصطحابها معي عبر هذه الرحلة.

الآن علي أن اعترف: إن هذا الشغف كله موجودين. هذه اللهفة إليها موجودة كلها بي: يا عجباً! أنا لم أدر. أوَكانت مشاعري تجاه أمية في ذلك

الأوان مثلما هي في هذه الوحلة؟ أم أن نصف قرن من العيش، وشيخوخة مقبلة، هما السبب في كل هذا الحنين. لا أدري. لا أعرف. لو كانت هذه المشاعر موجودة من زمان لانتبهت إليها بلا شك. ولربما كان لي شأن آخر مع امية. ولكن، من أين تراها جاءت؟ هي لا يمكن ان تنبع من العدم. وكما أراها الآن، تبدو أقوى من أي منطق محكم، ومن أية عقلانية، ومن أية حدود وسدود..

ولكن ماذا بشأن أمية؟ لماذا تناثر بنيانها الداخلي على هذا النحو؟ أية صفات أو أشياء جميلة لمستها هي فيّ، وأنا لا أعرفها، وأحبتها إلى هذه الدرجة؟ وطول هذا الزمن؟ أية أشياء؟ أمية! أمية!

أحسست برأس يطن، كأن النوافذ التي انفتحت على هواها في ذاكرتي قد مدّت طارق وراحت تقرع بها على الجبين، والصدغين، واليافوخ، والقحف، والجمجمة كلها: دقتين ودقة ثالثة، دقتين ودقة ثالثة، دقتين ودقة ثالثة..

خرجت من السيارة. قفلت بابها. مشيت إلى حيث توارت أمية وغابت قبل ساعات، وتواريت في الاتجاه المعاكس. كان القيظ قد شاخ، والشارع هامداً تماماً. مع ذلك كنت واثقاً أنني سأجد من ألاعبه النرد. كنت ملزماً بحزم مئتين وخمسين نسخة من الكتاب الأخير الصادر عن دارنا تمهيداً لشحنها إلى المغرب. لكن هذا الواجب الصارم لم يزحزح عزمي على اللعب. إنه ليس عزماً، بل حاجة. أنا إنسان لم ألعب يوماً بما فيه الكفاية. تزوجت ثلاث مرات، وعشت مع ست نساء أخريات، و لم أحس يوماً أني ألعب.

أمام المقهى وجدت الشرطي نفسه. ابتسم لي بروح رياضية. هنا اليوم، هزمته. تفاديت تسلطه علي. ابتسمت له ودخلت.

ولكن من تراه يمكنه أن يلعب، والقيظ في داخله أحر مما هو في الشوارع؟ كان واضحاً أنني قبل سبعة وعشرين عاماً خسرت حباً

وخسرت حبيبة. رغم كل شيء، لم أنتبه يومها. رغم المنطق المحكم، والقطيعة العقلية، والرحلة المستمرة نحو الآفاق الحية لعلاقات البشر.

رأيتني أنهض عن كرسي وأهرع بين الطاولات والناس. إذا كنت لم أنتبه قبل سبعة وعشرين عاما، فكيف بحق السماء لم أنتبه قبل ساعات. حتى أختي أدركت الحقيقة البسيطة، المعراة من كل وهم. وأنا كان يمكنني أن أوقف السيارة وأخرج، أن أوقفها في عرض الشارع وأخرج، أن أوقفها ولو صرخ السائقون خلفي، والناس حولي، والشرطي اللعين نفسه أمامي، وأخرج، وألحق بأمية، واستوقفها، وأقول لها إنني أحببتها مثلما أحبتني، وإن سبعاً وعشرين سنة قد ضاعت ولا لزوم لأن يضيع المزيد، وأننا يمكن هذه المرة أن نلتقي بلا دقات ولا فراق.

رأيتني أمضي إلى ذلك المكان، إلى تقاطع زقاق (المهدي) مع شارع (المأمون)، وقد غدا مكاناً ليس كالأمكنة. رأيتني أمضي كمن لسعته ألف حيّة.

لم أجد أمية بالطبع. وقفت في المكان نفسه الذي عبرته هي قبل ساعات. وقفت. وقفت. ووقفت. وعندما تمكنت من رؤية ماحولي، رأيته، رأيت سلامة محمود. كان هو الآخر واقفاً عند طرف الزقاق، ويتأملني. وكان وجهه يقول لي كلاماً عنيفاً.

الفهرس:



المؤلفات:

- المهزومون (دار الآداب).
- جرائم دون كيشوت (منشورات اتحاد الكتاب العرب) مجموعة قصصية.
- الوباء، اتحاد الكتاب العرب ط١، ط٢؛ دار الآداب، ط٣.
- ألف ليلة وليلتان (دار الآداب).
- التلال (دار الآداب).
- شرخ في تاريخ طويل (المؤسسة العربية للدراسات والنشر).
- بلد واحد هو العالم.
- المدينة الفاضلة (دار الأجيال) مجموعة قصصية.
- رسمت خطاً في الرمال (دار الكنوز).
- خضراء كالحقول (دار الآداب).
- خضراء كالمستنقعات (دار الآداب).
- خضراء كالبحار (دار المدى).
- خضراء كالعلقم

الترجمات:

ييتس (مجلدان) لهارولد بلوم.
الكاتب الأمريكي الأسود (مجلدان) تحرير كريستوفر بيغزبي.
الرمزية والأدب الأمريكي لتشارلز فيدلسون الابن.
الرئيس وودرو ولسون: مدخل إلى شخصيته ليسغموند فرويد.
عنف رواية بقلم فِستُس إيابي.

الدراسات:

Israeli: settlements/ Places are tombs?
Innocents at Home
Zionism: A Portentous Myth
Haig, Cold War Rhetoric

مسافة للنظر وأخرى للنظرية.
من السياسة إلى الأدب.
الفلسطيني في الفكر الصهيوني.
نظرات خاطفة إلى خيول صاهلة.
بيتها في سفاح الجبل.
الملك هو الملك /كيف استيقظ هاملت؟
مفاهيم شخصية حول كتابة القصة.

إعادة توازن ثقافي.
بين جلجامش وأخيل.
غابة الألغاز الشمعية.
إعادة كتابة التاريخ العربي.
دعوة إلى المباشرة.
القصص الجماعي والقصص الفردي.
بهلوان ذو سيف مسموم.
هذه الأزمنة ماهي؟

قريباً: هاني الراهب الأعمال الكاملة.





د.هاني الراهب

١٩٣٩ ـــ ٢٠٠٠

نال د. هاني الراهب جائزة دار الآداب عن رواية **المهزومون** حين كان طالباً في جامعة دمشق عام ١٩٦١، وفي العام نفسه فاز بالجائزة الثانية للقصة القصيرة في كلية الآداب بجامعة دمشق، وبعدها فاز بمنحة لدراسة الماجستير في الجامعة الأمريكية في بيروت بين عامي ١٩٦٣ ـ ١٩٦٥، وبمنحة حكومية لنيل الدكتوراه بين عامي ١٩٧١ ـ ١٩٧٣، وكانت رسالة الدكتوراه التي قدمها تحمل عنوان: (الشخصية الصهيونية في الرواية الإنكليزية).

كتب العديد من الروايات والقصص القصيرة والبحوث والدراسات والمقالات النقدية، وخاض العديد من المعارك الثقافية والأيديولوجية.

في عام ١٩٨٢ فازت روايته **الوباء** بجائزة اتحاد الكتاب العرب كأفضل رواية عربية، وفي عام ١٩٩٠ فاز بمنحة روكفلر من جامعة آن آربر لتقديمه دراسة عن صورة المرأة في الرواية العربية خلال العام الجامعي ١٩٩١-١٩٩٢.

طبعت رواياته في دمشق وبيروت. وتقف رواياته (وكتاباته عموماً) في صف الحرية والعدل والديمقراطية، وتنطلق من إيمان منفتح بالمصير العربي المشترك، وتحاول أن تكتنه الشخصية العربية وتجلياتها في عالم متغير، وقد سعى دائماً إلى تقديم رواية جماعية ذات محاور متعددة، حافلة بكتل بشرية وليس بأفراد معينين. وقد تُرجمت بعض مؤلفاته إلى الفرنسية والروسية والإسبانية والإنكليزية واليابانية.

صمم الغلاف: جمال سعيد
لوحة الغلاف للفنان علي حسين